أعلام المسلمين
٣٧

سُفيان بن عُيَيْنَة

شَيْخُ شُيُوخِ مَكَّةَ في عَصْرِهِ

عبد الغني الدقر

دار القلم
دمشق

سُفيان بن عُيَيْنَة

شَيْخُ شُيُوخِ مَكَّةَ في عَصْرِهِ

تأليف

عبد الغني الدقر

الطبعة الأولى
١٤١٢هـ - ١٩٩٢م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

سفيان بن عيينة

شيخ شيوخ مكة في عصره

هـذا الرجـل

* «ما رأيتُ أحداً من الناس فيه جزالةُ العلم ما في ابن عُيَيْنة».

الإمام الشافعي

* «ما رأيتُ أحداً أعلمَ بالسنن من سفيان بن عيينة».

الإمام أحمد بن حنبل

* «يا بُنيّ إذا قدمتَ مكة فجالِسْ عمرو بن دينار فإنَّ أذنيه قِمْعٌ للعلماء».

من وصية التابعي الجليل طاوس لابنه

* «ما في أصحاب الزُّهْري أتقنُ من ابن عيينة».

الإمام عليّ بن المديني

* «ابن عُيَيْنة مستغنٍ عن التزكية لتثبُّته وإتقانه، وأجمع الحفّاظ أنه أثبت الناس في عمرو بن دينار».

الإمام اللالكائي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، الرحمٰن الرحيم، مٰلك يوم الدين، إياك نعبد وإياك نستعين، اهدنا الصراط المستقيم.

وأفضل الصلاة والسلام على سيد المرسلين، محمد رسول الله وعلى آله وصحبه ومن تبعه بإحسان.

أما بعد، فإن أساس شِرْعة الله ومنهاجَه وقوّته وثَباته ويَقينه كتابُ الله تعالى: القرآنُ الكريم الذي ﴿ لا يَأتِيه الباطلُ من بينِ يديه ولا من خَلْفِه تنزيلٌ من حكيم حميد ﴾[1]؛ وما أوتيتْ أمَّةٌ من أممِ الأرض ما أُوتي المسلمون مِن القرآن الذي حَفِظه الله من التحريف والتبديل ﴿ إنا نحن نَزَّلْنا الذكرَ وإنّا له لحافِظون ﴾[2]، ﴿ بلسانٍ عربيّ مبين ﴾[3].

وجاءتِ السنّةُ النبويَّة ـ وهي قولُ رسول الله ﷺ وفعلُه وإقْرارُه ـ مبيِّنة للكتاب، قال الله تعالى: ﴿وأنزَلْنا إليكَ الذكر لِتُبيِّن للناسِ ما نُزِّل

---

(١) فصلت: ٤٢.

(٢) الحجر: ٩.

(٣) الشعراء: ١٩٥.

إليهم ﴾[1]، فتَبْيين رسول الله ﷺ هو بأمرٍ من الله تعالى في كتابِهِ لنبيّه ﷺ، وكذلك قوله تعالى ﴿ ومَا آتَاكم الرسُول فَخُذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾[2]، وقوله تعالى ﴿ قُلْ إنْ كنتُم تُحبّون الله فاتَّبعُوني يُحْبِبْكمُ الله ﴾[3]. وقال تعالى: ﴿ مَنْ يطعِ الرسولَ فقد أطاعَ الله ﴾[4]، وقال تعالى: ﴿ فليحذَرِ الذين يخالفون عن أمره أن تُصِيبَهم فِتنةٌ أو يُصِيبَهم عذابٌ أليم ﴾[5]، ﴿ ... وإنكَ لتهْدِي إلى صراطٍ مستقيمٍ . صراطِ الله... ﴾[6].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «دعوني ما تركْتُكم، إنما أهلكَ من كان قبلكم كثْرةُ سُؤَالِهم واخْتلافُهم على أنبيائهم، فإذا نَهيتُكم عن شيء فاجْتَنبوه وإذا أمَرْتكم بأمرٍ فأْتُوا منه ما اسْتَطَعْتُم» متفق عليه.

فهذه الآيات الكريمة تدل على أن طاعةَ رسول الله ﷺ هي من طاعة الله، لأن رسول الله كما قال الله تعالى: ﴿ لا ينطِق عن الهوى ﴾ وهذا مبدأ حديث رسول الله ﷺ.

ولقد كان أصحابُ رسول الله يَسألون رسولَ الله ﷺ عمّا ألمّ بهم من أمرٍ يُريدون أن يَعرفوا حِلّه من حَرَامه إذا لم يَجِدوا ذلك في كتابِ الله صَرِيحاً مَحْدوداً، أو يُبَادِرهم رسولُ الله ﷺ بأمرٍ أو نَهْيٍ،

(١) النحل: ٤٤.
(٢) الحشر: ٧.
(٣) آل عمران: ٣١.
(٤) النساء: ٨٠.
(٥) النور: ٦٣.
(٦) الشورى: ٥٢ ـ ٥٣.

أو يَنْدبُهم إلى أمْرٍ مِنَ الخير والمعروف يُثابون على فعلِه ولا يُعَاقَبون على تركِه، فيَحفظون ذلك كلَّه ويعملون به ولا يَكتبونه، لأنه كان الوَحْي لم يَزَل ينزل على رسول الله ﷺ، وكان حفظُهم لما يتلقّفون من رسول الله ﷺ متيناً قوياً لأن فيه حياتَهم وأعمالهم اليَومِيَّة من دِينية ودُنيوية، فإذا حَدَثَتْ واقعةٌ بحثوا عنها أولاً في كتاب الله، ثم في حديث رسول الله ﷺ.

وكان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه يَسأل: من سمع من رسول الله ﷺ قولاً يتعلّق في هذا الأمر - لأمرٍ ما - ؟ فيَقوم واحد، فيقول: ومن سمعه غيرُه؟ فإذا توفر سامعان أَمْضى الحكم على مقتضى ما سمع. والصحابة كلهم عدول، ولكن عمر رضي الله عنه يريد أن يكتمل استيثاقُه.

ثم أتى من بعدهم كبار التابعين فسمعوا منهم كلَّ شيءٍ مِن حديثِ رسول الله أو تأويلٍ لكتابِ الله من أكثر علماء الصحابة، أو ما اجتهدوه في حدود كتابِ الله وحديثِ رسوله، ثم حفظوه مثل ما حفظه الصحابة رضوان الله عليهم، لأنه دُستورُ حياتِهم المادِّية والرُّوحِية أيضاً.

وجاء مَن بعدهم من أَواسِطِ التابعين الذين حَفِظوا وكَتَبُوا ما سَمِعوا من بعضِ علماء الصحابة ومن كبار التابعين، كلَّ ما عِنْدَهم من تأويلٍ لكتابِ الله تعالى وحديثِ رسول الله ﷺ، وحفظوا إلى ذلك اجتهادَ الصحابة واجتهادهم فكانت ثروةُ هؤلاء التابعين من رواية الحديث والاجتهادِ ضخمةً جليلةً، وقربُهم من الصحابة ومن كبار التابعين يجعلُ عِلمَهم موثوقاً دقيقاً، ويحرِصون على حفظِ

الحديث بلفظه الذي نَطَقَ به رسولُ الله ﷺ، وإذا شَكُّوا بكلمة أو بمرادِفها وضعوا الاثنتين احتياطاً، نحو: «على أنوفهم - أو قال: علىٰ مناخرهم». ومع ذلك فعلماء الرجال بَدؤوا بالجَرح أو التَّعْديل من كبار التابعين خشيةَ أن يَدْخُلَ بينهم من لا يبالي ما يحدّث ممن له نِحْلة يدعُولها، أو بدعةٌ يدين بها، أو سياسة يتشيع لها، أو قصص، أو غير ذلك، وليسَ عند أحد من هؤلاء وهؤلاء كلُّ ما سُمِع من رسول الله ﷺ، ولكنْ عند جميعهم جميعُ ما رُوي عن رسول الله، وعن الصحابة، والتابعين، من حديثٍ، واجتهادٍ وفقه، كما يقول الإمام الشافعي في الرسالة.

ثم أتى من بعدهم علماءُ وحُفّاظ هم أتباع التابعين فهؤلاء لم يَرَوا صَحابةَ رسول الله، ولم يَـرَوا الصدر الأول من التـابعين، ولكنهم ظَفِروا بالطبقةِ الثانية من التابعين الذين حفِظوا علمَ من تقدَّمهم جميعَه. وخير هؤلاء وأشهرهم مالكُ بن أنس شيخ المدينة ومحدثها وفقيهها[1]، وسفيان بن عُيَينَة حافظ مكة وعالمُها.

ونحن هنا بمعرِض سفيانَ بن عيينة، فقد أقبل يسمع الحديث على الشيوخ الكبار من التابعين بنهم عجيب، وحافظة أعجب حتى بلغ بالحفظ والإتقان مع العِلم والفقه درجةَ كبار أئمة هذا الشأن، ثم جلس الناس الذين كانوا يحرصون على السماع منه حتى بلغوا نحو: أَلْفِ رَجلٍ كما قال يحيىٰ الحِمَّاني، وكلهم يسمع ويكتب، فإن لم يجدوه في المسجـدِ قصَدوا إلى داره، واسْتـأذَنُوا في

(١) ولمؤلف هذا الكتاب كتاب «الإمام مالك بن أنس» وفيه تفصيل من أخذ عن مالك ومن أخذ عنه مالك.

الدخول، فإن أذن وإلاَّ كَسروا بابَ دَاره كما قال سليمانُ بن مَطر. حملَهم على ذلك عَطَشهم إلى السماع من ثقة الثقات وشيخ حفّاظ مكة، بل شيخ حفّاظ عصره.

وعن طريق تلاميذ ابن عيينة انتشر الحديث في العالم، وخصوصاً منهم المكثرين عنه «الحُمَيديّ، والشافعيّ، وابنَ المَديني، وأحمد» كما يقول الذهبي، والأخصّ منهم الحميدي وابن المديني وأحمد. أما الإمام الشافعي فقد انصَرف إلى اجتهاده، ومع ذلك فقد روى عنه الكثير، والإمام الشافعي رحمه الله جَمَعَ بالرواية بين مالك وسفيان.

وهكذا انتشر الحديث من هذه الطريق، وهي من أغْزر طُرُق الرِّواية؛ فكثيراً ما يروي البخاري عن علي بن المديني عن ابن عيينة، أو عن الحميدي عن ابن عيينة. وطريق أمثال هؤلاء عالية، والمحدثون حريصون جداً على الطريق العالية، فإن سفيان بن عيينة روى عن نحو ثمانين من التابعين، أي ليس بينه وبين الصحابي إلاّ شخصٌ واحد. فهو بهذا جدير أن تكون سِلْسِلَتُه عن التابعين هي السلسلةَ الذهبية.

وإن سفيان رحمه الله وأمثاله هم عِمَادُ مَن نقل حديث رسول الله ﷺ الذي هو الأساس الثاني لشريعة الله بعد كتاب الله.

عصـــره

لقد عاش أبو محمد سفيان بن عيينة القرن الثاني، إلا تسعَ سنين منه. وُلد في عصر هشامِ بن عبد الملك الأموي، وتوفي في السنة نفسها التي توفي فيها الأمينُ بنُ الرَّشيد العباسيّ. فشَهد الحكمَ الأموي والحكم العباسي إلى الأمين، وشهِد الضعفَ السياسي في آخرِ بني أمية كما شهِد قوةَ الحكم ثم استقراره فيما لَقِيَ من الحكم العبَّاسي، وكانت رقعةُ هذا الحكم من الأطلسي إلى حدود الصين.

وقد شهد هذا العصر فَوْرةً عظيمةً في العلوم الشرعية، نَشِط فيه المحدثون كما جَدَّ فيه الفُقَهاء المجتهدون، وفيه وُلِد المذهبُ الحَنفي، وكان فيه أكبر مجتهدي هذا المذهب: أبو حنيفة وأبو يوسف ومُحمد بن الحسن رحمهم الله تعالى. كما وُلد فيه المذهبُ المالكي، ومالك هو المجتهد الأكبر لمذهبه، ومن أصحابه الكبار الذين أخذوا حديثَه كما أخذوا اجتهاده وفِقْهه: الإمامُ الشافعي، وعبد الله بن وَهْب، وزيادُ بنُ عبد الرحمٰن شَبْطون، وعبدُ الرحمٰن بنُ القاسم، وأشهَبُ بن عبد العزيز القيسي، وابنُ الماجِشُون، وآخرون. وكل هؤلاء لهم اجتهادُهم في حدودِ المَذْهب، إلا الإمامَ الشافعي فلهُ مذهَبُه، وقد وُلد مذهبه

القديم في هذا العصر نفسِه، ومن أصحابه في هذا العصر في المـذهب القـديم: الإمـامُ أحمـدُ، والكَـرابيسي، وأبـو ثــور، والحسنُ بن الصَّباح أبو علي الزَّعْفراني، وهؤلاء من أثبت رُوَاة مَذهبه القديم.

أما التدين في نفوس الخاصة والعامة فلا يزال غضّاً لا يعرف الناس في حياتهم وسلوكهم ومعـاملاتهم غيـر كتاب الله وسنّـة رسوله، وبعض اجتهاد الصحابة والتابعين. وكان تمسّكهم بهذا واعتِصامُهم بحبله على أحسن حال، فكان قادةَ الناس عُلماؤهم لا يُقادُون إلَّا بدين الله ـ الإسلام ـ وبما عليه رسول الله ﷺ، ولم يحدُثْ بعدُ هذا التَّعصُّب المذهبي المَقِيت الذي بدأ بقوة في القرن الثالث، وكُلَّما قلَّ الاجتهادُ حتى الاجتهادُ المذهبي ازداد التَّعصبُ حِدَّة، حتى بلغ التعصب في أوائل القرن الثالث أن قال بعضهم: «اللهم أمِتِ الشافعي وإلاَّ ذَهب علمُ مالك»، وكلما امتَدَّ الزمن وقلّتْ رواية الحديث ازدادَ التعصُّبُ حِدَّةً، حتى لو قلتَ لأحدهم: هذا حديث رسول الله وهو مخالف لقول إمامك، فلا يعتدّ إلا بقول المذهب، وقد كان في العصر الذي نتكلّم عنه مجتهـدون كثيـرون، ومجتهـدون مـذهبيـون، منهم الأَوْزاعي، والثوري، والليث، وداود، وغيرهم.

ومن المجتهدين المذهبيين: أبو يوسف وخالف في المذهب الحنفي كثيـراً ومثله محمد بن الحسن، ومن مـذهب مـالـك: الشافعي الذي كان مجتهداً مذهبياً، ثم أصبح، وله مذهب مطلق، وهكذا بقية المذاهب.

ولم يخل هذا العصر من مُبْتدعين في الدين، منهم المعتزلة والجهمية والرافضة والمرجئة، وهناك مبتدعة كفرة من بقايا الفرس ويسمَّوْن الزنادقة، وهم المزدكيّة، والمانوية، والديصانية وأصلها كلّها يعود إلى الزَّرَادُشتية.

وفي هذا العصر وخصوصاً في عهد الرشيد بدأت التَرجمة، ترجمة الكتب اليونانية من السريانية إلى العربية، فنُقلت الفلسفةُ والمنطق والطِّبُّ وعلومُ الطبيعة، وغير ذلك.

وفي نهاية هذا العصر اختُرِع فنّ التصوف، واختُرِع له أصولٌ وقواعد وتعريفات، وتَمسَّك فيه أوَّل أمره قَومٌ علماء وصَالِحون، وكان قصدهم أولاً الاجتهاد في الطاعة والإخلاص فيها، وترك المحرّمات، والاجتهاد في ترك الشبهات، وخشوع القلب لله، ثم خلَف من بعدهم خَلْفٌ فلسفوا التصوف وخرجوا بفلسفتهم هذه عن حدود شرع الله.

وفي هذا العصر بلغت اللغة العربية في قواعدها وحدودها الذروة على يد أبي عمرو بن العَلَاء المتوفَّى سنة ١٥٤ هـ، ثم الخليلُ بن أحمد عبقريّ عصره المتوفَّى سنة ١٧٠ هـ، ثم سيبويه واسمه عمرو بن عثمان توفي سنة ١٨٠ هـ وهو ذِروةُ الذِّروة بين الثلاثة، وكلّ من أتى بعده فهو عالةٌ عليه في علوم العربية، وتوفي ولم يجاوز عمرُهُ أربعين سنة.

ويمتاز هذا العصر بفتوة علوم الإسلام، والعلوم المترجمة وأصلها يوناني، والعلوم العربية، حتى في منازع البدع وما أتى

بعدها لم يأتِ بعدها أقوى منها ولا أفتى، وإنما تُوُسِّع فيها وفي شرحها وتنقيحها، ونقد بعضها.

فهذا العصرُ أقوى العصور سياسة وأحسنُها علماً واجتهـاداً، وأطيبها دِيناً وخُلُقاً بعد عصر الصحابة والتابعين.

اسمه وكنيته وشهرته

هو أبو محمد سفيان بن عُيَيْنة بن أبي عمران[1] ميمون الهلالي الكوفي ثم المكي شيخ الإسلام، مولى محمد بن مزاحم[2].

مولده:

وُلد سفيان بالكوفة عشية السبت من نصف شعبان سنة سبع ومئة[3].

والده:

لم نعرف عن والده عيينة إلا أنه كان من عمّال خالد بن عبد الله القسري[4]. فلما عُزل عن العراق، وولي يوسف بن عمر الثقفي[5] طلب عمّال خالد فهربوا منه، فلحق عيينة بمكة فنزلها[6]، وقيل: هو جده أبو عمران ميمون.

---

(١) في تاريخ بغداد: أبو عمران: هو عيينة.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٤.

(٣) تاريخ بغداد ٩/١٧٥.

(٤) خالد بن عبد الله بن يزيد من بجيلة أمير العراقين توفي سنة ١٢٦ هـ.

(٥) يوسف بن عمر بن محمد الثقفي من جبابرة الولاة في العهد الأموي توفي سنة ١٢٧.

(٦) طبقات ابن سعد ٥/٤٩٧.

وفي رواية يقول فيها سفيان: كان أبي صَيْرَفياً بالكوفة، فركبه دَيْن فحملنا إلى مكة[1].

إخوة سفيان:

كان لسفيان تسعة إخوة - وقيل عشرة[2] - أي بما فيهم سفيان. لم يرو الحديث منهم إلا أربعة: عمران بن عيينة: وهو صدوق له أوهام، وإبراهيم بن عيينة: صدوق يَهِم، وآدم بن عيينة: لا يُحتج به، ومحمد بن عيينة: صدوق له أوهام[3].

لم يتزوّج:

قيل لسفيان: ألا تتزوج؟ قال: أتزوج امرأة تموت[4]؟! ولهذا لم يُعلم أنه تزوّج قطّ، ولم يُعلم له ولد.

بدء سفيان بالعلم:

رُوي أنه حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين، وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين[5]، وقال الذهبي: سمع وهو صغير بل وهو غلام.

قال سفيان بن عيينة: لما بلغتُ خمسَ عشرةَ سنة دعاني أبي فقال لي: «يا سفيان، قدِ انقطعت عنك شرائع الصِّبا، فاحتفظْ من الخير تكنْ من أهله، ولا يغُرَّنَّك من اغترَّ بالله فمدحَك بما يعلم الله خلافه منك، فإنه ما من أحد يقول في أحد من الخير إذا

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٦٠.

(٢) كما في تهذيب الأسماء واللغات ١/ ٢٢٤.

(٣) انظر: تقريب التهذيب، وتاريخ بغداد ٩/ ١٧٤، وسير أعلام النبلاء ٨/ ٤٦٥.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٢٧٣.

(٥) طبقات الشعراني ١/ ٥٦.

رضي إلا وهو يقول فيه من الشرِّ مثلَ ذلك إذا سَخِط، فاستأنس بالوحدة من جلساء السوء، ولا تنقل أحسن ظني بك إلى غير ذلك، ولن يسعَدَ بالعلماء إلا من أطاعهم». قال سفيان: فجعلت وصية أبي قِبلةً أميل معها، ولا أميل عنها[١]. وقال علي بن المديني: سمعت سفيان قال: «ربما عادني ابن أبي نجيح وأنا غليِّم، وكنت طويل الملازمة بالليل والنهار»[٢].

ثم سعى يسمع الحديث من أفواه كبار المحدثين، فسعى إلى الزهري فكان على بابه من منعه من الدخول إليه. يقول ابن عيينة ـ كما في تاريخ البخاري ـ: «سألت الزهري عن حديث، وثَمّ خصيان وحَشَم فطردوني، فقال: دعوه، ثم قال: ما رأيت أحداً يطلب هذا الشأن أصغر منه»[٣].

وكان ابن عيينة يقول: جالست الزهري وأنا ابنُ ست عشرة سنة وشهرين ونصف[٣].

وجالس من العلماء عبد الكريم أبا أميّة ـ وهو ضعيف ـ. يقول سفيان: جالسته وأنا ابن خمس عشرة سنة[٤].

لم يلتزم سفيان في هذه السن السماعَ من حافظ واحد، فحيثما أُتيح له أن يسمع لا يألُ جهداً أن يسمع من آخرَ من كبار الحفّاظ التابعين. يقول شعبة بن الحجاج: «رأيت ابن عيينة غلاماً معه

---

(١) صفة الصفوة ٢/١٣٠.
(٢) الجرح والتعديل ١/٥١.
(٣) التاريخ الكبير للبخاري ٤/٩٤ ـ ٩٥.
(٤) طبقات ابن سعد.

ألـواح طويلة عنـد عمرو بن دينـار، وفي أذنه قـرط ـ أو قال: شنف[1] ـ» وهما بمعنى واحد.

ويقول حماد بن زيد: رأيت سفيان عند عمرو بن دينار له ذؤابة معه ألواح[2].

وكان ابن عيينة يتحدث عن مجيئه إلى مكة ودخوله الحرم، فيقول: «فصِرت إلى المسجد، فإذا عمرو بن دينار، فحـدثني بثمانية أحاديث، فأمسكت له حِمارَه حتى صلّى وخرج، فعرضت عليه الأحاديث، فقال: بارك الله فيـك»[3]. ويقول ابن عيينـة: جالست عبد الكريم الجزري سنتين، وكان يقول لأهـل بلده: انظروا إلى هذا الغلام يسألني وأنتم لا تسألوني[4].

ثم مضى بكامل جُهده ووعيه وألْمعيّته وفطنته يسمع ويحفظ حتى أضحى إمام المحدثين، وقِبلة الناس أجمعين، وشيخ مكة الأكبر. وإليك التفصيل:

شيوخـه:

لسفيان بن عيينة من الشيوخ من لا يكادون يُحصَوْن كثرةً، وجلُّهم من التابعين، فلا يكون بينه وبين الصحابي إلا شخص واحد، ولا بينه وبين رسول الله ﷺ إلا شخصان: تابعيّ وصحابيّ، فلا يمكن أن يُتصوّر حديث يُروى بمثل هذا السند إلا الصحة،

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٢.
(٢) الجرح والتعديل ١/٣٤.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٠.
(٤) السير ٨/٤٦٢.

وتمام الثقة بأنه من قول النبي عليه الصلاة والسلام.

ونُورد هنا بعضَ أشياخه ممن ذكرهم الذهبيُّ في «السِّيَر»، والحافظ ابن حجر في «تهذيب التهذيب».

وقال الذهبي: «وطلبَ الحديث وهو حدَث، بل غلام، ولقي الكبارَ، وحمل عنهم علماً جمّاً، وأتْقن، وجَوَّد، وجَمع، وصنَّف، وازدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علوُّ الإسناد، ورُحِل إليه من البلاد، وألْحق الأحفاد بالأجداد»[1].

ثم أورد من روى سفيان عنهم فقال: سمع في سنة تسعَ عشرة وسنة عشرين، وبعد ذلك. فسمع من عمرو بن دينار[2] وأكثر عنه، ومن زياد بن عِلاقة[3]، والأسودِ بن قيس[4]، وعبدِ اللهِ بن أبي يزيد[5]، وابنِ شهاب الزُّهري[6]، وعاصِمِ بن أبي النَّجُود[7]،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٥.

(٢) عمرو بن دينار الجمحي مولاهم، أحد الأعلام، تابعي سمع من العبادلة: عبدِ الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو، قال مسعر: ثقة ثقة ثقة، مات سنة ١١٥.

(٣) زياد بن عِلاقة الثعلبي الكوفي، تابعي سمع عن عمه قُطبة وجرير بن عبد الله البجلي، وثقه ابن معين، توفي سنة ١٢٥ هـ.

(٤) الأسود بن قيس العبدي، ثقة من الرابعة.

(٥) عبد الله بن أبي يزيد، عن ابن عباس، وابن عمر، تابعي مات سنة ١٢٠، وثقه ابن المديني، وابن مَعِين.

(٦) هو محمد بن مسلم الزُّهري القرشي أحد الأئمة الأعلام، عالمُ الحجاز، روى عن ابن عمر، وسهل بن سعد، وأنس، وغيرهم كثير، فهو تابعي شهير توفي سنة ١٢٤ هـ.

(٧) هو عاصم ابن بَهْدَلة وهي أمُّه، أحدُ القراء السبعة الأسدي مَوْلاهم، وثقه أحمد، توفي سنة ١٢٩ هـ.

وأبي إسحاق السَّبِيعي(١)، وعبد الله بن دينار(٢)، وزيد بن أسْلَم(٣)، وعبد الملك بن عمير(٤)، ومحمدِ بن المنكدر(٥)، وأبي الزبير(٦)، وحُصين بن عبد الرحمٰن(٧)، وسالم أبي النضر(٨)، وشبيب بن غرقدة(٩)، وعَبدة بن أبي لبابة(١٠)، وعلي بن زيد بن جُدْعان(١١)، وعبد الكريم بن مالك الجزري(١٢)، وعطاء بن

---

(١) هو عمرُو بن عبد الله السَّبيعي مُكثِر ثقة عابد، توفي سنة ١٢٩.

(٢) عبد الله بن دينار العدوي مولاهم عن ابن عمر.

(٣) زيد بن أسلَم العدوي مولاهم المدني، أحد الأعلام، عن أبيه، وابنِ عمر، وجابر، وعائشة، وثقه أحمد، وأبو حاتم، والنسائي، مات سنة ١٣٦ هـ.

(٤) عبد الملك بن عمير القرشي عن جرير البجليّ وأمِّ عطية وخلق، توفي سنة ١٣٦ وقد جاوز المئة.

(٥) محمد بن المنكدر بن عبد الله التميمي أحد الأئمة الأعلام، عن عائشة، وأبي هريرة، وجابر، وغيرهم، وثقه ابنُ معين، وأبو حاتم، مات سنة ١٣٠ هـ.

(٦) هو محمد بن مسلم الأسدي مولاهم، أبو الزُّبير المكي أحدُ الأئمة، عن جابر، وابن عباس، وابن عمر، مات سنة ١٢٨.

(٧) حصين بن عبد الرحمٰن السلمي، عن جابر بن سَمُرة، وخلق. وثقه أحمد، وأبو حاتم، ساء حفظه في كِبَر. توفي سنة ١٣٠ هـ.

(٨) سالم بن أبي أمية، مولاهم، أبو النضر المدني، عن أنس، وسليمان بن يَسَار، وثقه يحيى بن معين.

(٩) شبيب بن غرقدة، عن عروة البارقي، وثقه أحمد.

(١٠) عبدة بن أبي لَبابة الأسدي، مولاهم، الفقيه، عن ابن عمر، وعبد الله بن عمرو، وثقه أبو حاتم، قال الأوزاعي: لم يَقدَمْ علينا أفضلُ منه.

(١١) علي بن زيد بن جُدعان التيمي البصري الضرير الحافظ عن أبيه وابن المسيب، قال أحمد وأبو زرعة: ليس بالقوي، مات سنة ١٢٩ هـ.

(١٢) الجزري الأموي مولاهم، عن ابن المسيب، وعنه ابن جريج، قال أحمد وابن معين: ثقة ثبت، مات سنة ١١٧.

السائب (١) ، وأيوب السَّخْتِياني (٢) ، والعلاء بن عبد الرحمٰن (٣) ، وهشام بن عروة (٤) ، ومنصور بن المُعْتَمِر(٥)، ومَنصُورِ بن صَفية الحجَبي(٦) ، ويَزيدَ بن أبي زِياد(٧)، وحُمَيد الطَّويل(٨)، ويحيى بنِ سعيد الأنصاري(٩)، وأبي يَعفور العبدي(١٠)، وابنِ عَجْلان(١١)،

(١) عطاء بن السائب الثقفي أحد الأئمة، عن أنس وابن أبي أوفى، وعمرو بن حريث، اختلط في كبره، توفي سنة ١٣٦.

(٢) أيوب بن أبي تميمة كيسان السختياني الفقيه، أحد الأئمة الأعلام، عن عمرو بن سلمة، وأبي رجاء العطاردي، قال ابن سعد: كان ثقة ثبتاً حجة، توفي سنة ١٣١ هـ.

(٣) العلاء بن عبد الرحمٰن الجهني مولىً، أحد الأعلام، عن أبيه، وأنس، وعكرمة، وثقه أحمد، توفي في خلافة المنصور.

(٤) هشام بن عروة بن الزبير أحد الأعلام، عن أبيه وزوجته فاطمة بنت المنذر، قال ابن سعد: ثقة حجة توفي سنة ١٤٥ هـ.

(٥) منصور بن المعتمِر السلمي، أحد الأعلام المشاهير، قال أبو حاتم: متقن لا يخلِط ولا يدلِّس، وقال العجلي: ثقة ثبت، توفي سنة ١٣٢ هـ.

(٦) هو منصور بن عبد الرحمٰن العبدري المكي، عن أمه صفية، وسعيد بن جبير، وثقه النسائي والناس، توفي سنة ١٣٧.

(٧) يزيد بن أبي زياد الأشجعي الكوفي، عن زبيد اليامي وحبيب بن أبي ثابت، وثقه أحمد وابن معين.

(٨) حميد بن أبي حميد مولى طلحة الطلحات، عن أنس والحسن وعكرمة، قال القطان: مات حميد وهو قائم يصلي، توفي سنة ١٤٢.

(٩) يحيى بن سعيد الأنصاري النجّاري، قاضي المدينة، عن أنس، وابن المسيب، قال ابن سعد: ثقة حجة.

(١٠) وَقْدان، وقيل واقد، أبو يعفور العبدي، أدرك المغيرة بن شعبة، وروى عن ابن عمر، وابن أبي أوفى، وأنس، وغيرهم. قال علي بن المديني: ثقة توفي سنة ١٢٠.

(١١) هو محمد بن عجلان القرشي أبو عبد الله المدني، أحد العلماء العاملين، =

وابنِ أبي ليلى[١]، وسليمانَ الأعمش[٢]، وموسى بن عقبة[٣]، وسهيـلِ بـن صـالـح[٤]، وعبـدِ الله بـن أبي نَـجِيـح[٥]، وعبد الرحمٰن بن القـاسم[٦]، وأمية بن صفـوان الجمحي[٧]، وجامع بن أبي راشد[٨]، وسعد بن إبراهيم قاضي المدينة[٩]، وعبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي حسين[١٠]، وأبي الزِّناد عبد الله بن

= عن أنس، وأبي حازم، وثقه أحمد وابنُ معين، وذكره البخاري في الضعفاء توفي سنة ١٤٨ هـ.

(١) هو محمد بن عبد الرحمٰن بن أبي ليلى، قاضي الكوفة، عن الشعبي، وعطاء، ونافع، قال أبو حـاتم: محلّه الصدق، شغـل بالقضـاء فساء حفـظه، توفي سنة ١٤٨ هـ.

(٢) هو سليمان بن مِهْران الكاهلي مولاهم أبو محمد الكوفي، الأعمش، أحـد الأعلام الحفّاظ والقـراء، رأى أنساً وروى عن عبـد الله بن أبي أوفى، قال ابن عيينة: كان أقرأهم، وأحفظهم، وأعلمهم، وقال العجلي: ثقة ثبت توفي سنة ١٤٨ هـ.

(٣) مـوسى بن عقبة الأسدي مولاهم، عن عروة وعلقمة بن وقاص، قال ابن معين: ثقة، توفي سنة ١٤١ هـ.

(٤) سهيـل بن صالح بن حكيم الأنطاكي عن أبي أسامة وابن عليّة وغيره، وثقه أبو حاتم.

(٥) عبـد الله بن أبي نجيح الثقفي مولاهم، أبو يسار المكي، عن طاوس ومجاهد، وثقه أحمد، توفي سنة ١٣٨ هـ.

(٦) عبـد الرحمٰن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر عن أبيه وأسلم العدوي، وثقه أحمد وابن سعد، مات سنة ١٢٠ هـ.

(٧) أمية بن صفوان الجمحي بن عبد الله، مقبول.

(٨) جامع بن أبي راشد الكاهلي الكوفي الصيرفي، قال العجلي: ثقة ثبت صالح.

(٩) سعـد بن إبراهيم بن عبد الرحمٰن بن عوف، عن أنس وعبد الله بـن جعفر، قال شعبة: كان ثبتاً فاضلاً يصوم الدهر ويختم في يوم وليلة، توفي سنة ١٢٥ هـ.

(١٠) عبد الله بن عبد الرحمٰن بن أبي حسين النوفلي المكي، عن أبي الطفيل، ونافع بن جبير، وثقه أحمد.

ذكوان[1]، وعبد العزيز بن رُفَيع[2]، وإسحاقَ بنِ عبد الله بن أبي طلحة[3]، وإسماعيل بن محمد بن سعد[4]، وأيوب بن موسى[5]، وبرد بن سنان[6]، وبكر بن وائل[7]، وبيان بن بشر[8]، وسالم بن أبي حفصة[9]، وأبي حازم الأعرج[10]، وصَدَقة بن يَسار[11]، وصفوان بن سُلَيم[12] ....

---

(١) عبد الله بن ذكوان الأموي مولاهم، كان أحد الأئمة، عن أنس وابن عمر، قال أحمد: ثقة أمير المؤمنين، وهو ثقة حجة، توفي سنة ١٣٠ هـ.

(٢) عبد العزيز بن رُفَيع الأسدي المكي، عن ابن عباس وابن عمر وأنس، وثقه أحمد وابن معين، مات سنة ١٣٠ هـ.

(٣) إسحاق بن عبد الله الأنصاري، عن أبيه وأنس والطفيل، قال ابن معين: ثقة حجة، توفي سنة ١٣٢ هـ.

(٤) إسماعيل بن محمد بن سعد بن أبي وقاص الزهري، عن أبيه وعمَّيْه عامر ومصعب، وأنس، وثقه ابن معين، توفي سنة ١٣٤ هـ.

(٥) أيوب بن موسى بن عمرو الأموي الكوفي الفقيه وثقه أحمد توفي سنة ١٣٣ هـ.

(٦) برد بن سنان الدمشقي عن واثلة بن الأسقع وعطاء ونافع وثقه ابن معين توفي سنة ١٣٥ هـ.

(٧) بكر بن وائل بن داود الليثي وعنه أبوه.

(٨) بيان بن بشر الأحمسي أبو بشر الكوفي، عن أنس وقيس بن أبي حازم، قال أحمد وابن معين: ثقة توفي سنة ١٤٠ في حدودها.

(٩) سالم بن أبي حفصة العجلي، أبو يونس الكوفي عن إبراهيم التيمي والشعبي توفي سنة ١٤٠ قريباً منها.

(١٠) أبو حازم هو سَلمة بن دينار المدني الأعرج أحد الأعلام، عن ابن عمر، وعبد الله بن عمرو، ثقة، لم يكن في زمانه مثله، توفي سنة ١٣٥ هـ.

(١١) صدقة بن يسار الجزري، نزيل مكة، عن طاوس، وسعيد بن جبير، وثقه أحمد وابن معين، توفي أول خلافة بني العباس، أي نحو سنة ١٣٣ هـ.

(١٢) صفوان بن سليم الزهري مولاهم عن ابن عمر، وأبي أمامة بن سهل، وخلق، قال أحمد: ثقة من خيار عباد الله الصالحين توفي سنة ١٣٢ هـ.

وعاصم بن كليب الجرمي[١].

يقول الذهبي[٢] ـ بعد أن سرَد بعض شيوخه ـ: وخلق كثير روى عنهم وتفرد بالرواية عن خلق من الكبار.

ولقـد أسند سفيـان عن الجماهيـر من التـابعين وأركـانهم: كعمرو بن دينار، والزهري، ومحمـد بن المنكدر، وعبـد الله بن دينار، وزيد بن أسلم، وأبي حازم، ويحيـىٰ بن سعيد الأنصاري، بل أدرك نحواً من ستة وثمانين من أعلام التابعين، ومن الكوفيين: أبو إسحاق، وعبد الله بن عمير، والشيباني، والأعمش، ومنصور، وإسماعيل بن خالد[٣]. . . الخ.

قال سفيان بن عيينة: قال لي ابن جريج: «مـا يَلْقَى منك عمرُو بن دينار غلبتَ على وِسادته»[٤] أي من كثرة ملازمته إياه.

وقال سفيان: حدثنا من لم تر عيناك مثله: ابن أبجر ـ وهو عبد الملك بن سعيد ابن أبجر[٥] ـ وهو كوفيّ ثقة عابد، كمـا في التقريب.

---

(١) عاصـم بن كليب بن شهاب الجرمي الكوفي، عن أبيه وأبي بردة ومحمد بن كعب، وثقه ابن معين والنسائي، توفي سنة ١٣٧ هـ.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٦.

(٣) الحلية ٧/٣٠٧.

(٤) الجرح والتعديل ١/٣٥.

(٥) الجرح والتعديل ١/٣٦.

أكبرُ التابعِين مِن شيُوخِه أثراً بـه

تقدّم أن سفيان بن عيينة سمعَ من نحو ثمانين تابعياً ونيّف، ولكنّ أكبرَهم أثراً في سفيان تابعيان جليلان، هما: عمرو بن دينار، والزهري. ولا بد أن نتحدث عن كل واحدٍ منهما بقليل من التفصيل مختصراً من «سِيَر أعلام النبلاء» للذهبي، و«تهذيب التهذيب» للحافظ ابن حجر، وطبقات ابن سعد. وإليك ترجمتهما:

عمرو بن دينار

الإمام الكبير أبو محمد الجمحي مولاهم المكي: كان مفتي مكة ثلاثين سنة.

مولده:

وُلد في إمرة معاوية سنة خمسٍ أو ستٍ وأربعين.

شيوخ ابن دينار:

سمع ابن عمر، وابنَ عباس، وجابرَ بن عبد الله، وأنس بن مالك، وعبد الله بن جعفر، وأبا الطفيل، وابنَ الزبير، وأبا سعيد، والبَراء بن عازب، وعبدَ الله بن عمرو، وأبا هريرة، وزيد بن أرقم، والمِسوَر بن مخرمة، وغيرهم من الصحابة.

وسمع بَجَالة بن عَبَدَة، وعبيد بن عمرو الليثي، وعبد الرحمٰن بن مطعم، وأبا الشعثاء جابرَ بن زيد، وأبا سلمة بن عبد الرحمٰن، وطاوساً، وسعيد بن جبير، وغيرهم.

وروايته عن أبي هريرة جاءت في سنن ابن ماجه. وقال أبو زرعة: لم يسمع من أبي هريرة.

وكان من أوعية العلم، وأئمة الاجتهاد.

وروى عنه من التابعين وغيرهم كثير: منهم ابن أبي مُلَيْكة ـ وهو

أكبر منه -، وقتادةُ بن دِعامة، والزهري، وأيوبُ السختياني، وعبد الله بن أبي نجيح، وجعفر الصادق، وعبد الله بن ميسرة، وابن جريج، وشعبة، وسفيان الثوري، والحمَّادان، وورقاء بن عمر، ومحمد بن مسلم الطائفي، وداود بن عبد الرحمٰن العطار، وإبراهيم بن طهمان، وهشيم، وأبو عوانة، وأبو الربيع السمان، وسفيان بن عيينة، وخلق كثير.

وقيل: إن نافعاً مولى ابن عمر يروي عنه.

توثيقه:

قال ابن عيينة: عمرو - ابن دينار - ثقة ثقة ثقة. وقال سفيان بن عيينة أيضاً: قلت لمسعر: من أشد تثُبّتاً في الحديث ممن رأيت؟ قال: ما رأيت مثلَ القاسم بن عبد الرحمٰن، وعمرو بن دينار.

أخبر خالد بن نزار عن سفيان بن عيينة قال: كان عمرو بن دينار أعلمَ أهل مكة.

وقال ابن عيينة: حدثنا ابن دينار، وكان ثقة ثقة ثقة. وحديث أسمعه من عمرو أحبُّ إليَّ من عشرين من غيره.

وقال أحمد بن حنبل: كان شعبة لا يقدم على عمرو بن دينار أحداً لا الحَكَم ولا غيرَه في التثُّبت، وكان عمرو مولى هؤلاء ولكنّ الله شرَّفه بالعلم. وقال يحيىٰ القطان وأحمد بن حنبل: عمرو - بن دينار - أثبت من قتادة. وقال أحمد: هو أثبت الناس في عطاء. وقال الزهري: ما رأيت شيخاً أنصَّ[1] للحديث منه. وقال النسائي: عمرو ثقة ثَبْت.

---

(١) أي أحرصهم أن يأتي بالحديث بنصِّه لا بمعناه.

علمه وفقهه:

قال عبد الله بن أبي نجيح: ما رأيتُ أحداً قطُّ أفقهَ من عمرو بنِ دينار ولا عطاءً ولا مجاهداً ولا طاوساً. عن ابن أبي نجيح قال: لم يكنْ بأرضنا أعلمُ من عمرو بن دينار، ولا في جميع الأرض.

قيل لإياسِ بن معاوية: أيَّ أهـلِ مكة رأيتَ أفقـه؟ قال: أسوؤهم خَلْقاً عمرو بن دينار.

وقال ابن عيينة: ما كان عندنا أحدٌ أفقهَ من عمرو بن دينار ولا أعلمَ، ولا أحفظَ منه. وقال سفيان أيضاً: عمرو بن دينار أكبرُ من الزهري، سمع من جابر وما سمع الزهري منه. قال الذهبي: سمع الزهري من جابر قليلاً.

وتوفي عمرو بن دينار سنة ١٢٥ هـ وكان عمر سفيان بن عيينة نحو ثماني عشرة سنة وقد لازمه وهو صغير إلى أن توفي، وروى عنه نحو ألفِ حديث إلا خمسين كما لبث نوح في قومه. وهذا رقم كبير بالنسبة للتابعين.

قال طاوس لابنه: يا بُنَيّ إذا قدمت مكة فجالسْ عمرو بن دينار فإن أُذنيه قمعٌ للعلماء.

الزُّهــــري

اسمه ونسبه:

هو محمد بن مسلم بن عبيد الله بن عبد الله بن شهاب بن عبد الله بن الحارث بن زهرة، أبو بكر القرشي الزُّهري المدني، الإمام العَلَمُ حافظُ زمانه، نزيل الشام.

مولـده:

ولد سنة ست وخمسين.

يقول عن نفسه: نشأت وأنا غلام لا مـال لي، ولا أنا في الديوان، وكنت أتعلم نسب قومي من عبد الله بن ثعلبة، وكان عالماً بذلك، وهو ابن أخت قومي وحليفُهم ثم تركت ابنَ ثعلبة، وجالست عُروة، وعبيدَ الله، حتى فقِهت فرحلتُ إلى الشام.

سماعـه:

قال أحمد العجلي: سمـع ابنُ شهاب من ابن عُمـر ثلاثـةَ أحاديث، وقال عبد الرزاق: حدثنا معمر قال: سمع الزهري من ابن عمر حديثين.

وروى عن سهل بن سعد، وأنس بن مالك ـ ولقيه بدمشق ـ، والسائبِ بـنِ يزيـد، وعبد الله بن ثعلبـة بن صُغير، ومحمـود بن الربيع، ومحمـود بن لبيد، وسُنين أبي جميلة ـ صحـابي صغير ـ

وأبي الطفيل عامر، وعبد الرحمٰن بن أزهر، وربيعة بن عباد الديلمي، وعبد الله بن عامر بن ربيعة، ومالك بن أوس بن الحدثان، وسعيد بن المسيب ـ وجالسه ثماني سنوات وتفقه به ـ، وغيرهم كثير.

من روى عنه:

حدّث عنه عطاءُ بن أبي رباح ـ وهو أكبر منه ـ، وعمر بن عبد العزيز ـ ومات قبله ببضع وعشرين سنة ـ، وعمرو بن دينار، وعمرو بن شعيب، وقتادة بن دِعامة، وزيد بن أسلم، وطائفة من أقرانه، ومنصور بن المعتمر، وأيوب السَّخْتياني، ويحيىٰ بن سعيد الأنصاري، وأبو الزناد، وصالح بن كيسان، وعقيل بن خالد، ومحمد بن الوليد الزبيدي، ومحمد بن أبي حفصة، وعبد العزيز بن الماجشون، وأبو أويس، ومعمر بن راشد، والأَوْزاعي، وشعيب بن أبي حمزة، ومالك بن أنس، والليث، وابن أبي ذئب، وهشيم بن بشير، وسفيان بن عيينة، وأمم سواهم.

علمه وتدوينه:

عن الدَّرَاوَرْدي: أول من دوّن العلم وكتبه ابن شهاب. وعن سفيان قال: كان الزهري أعلم أهل المدينة. وقال عمر بن عبد العزيز: ما ساق الحديثَ أحدٌ مثل الزهري، وقال عمرو بن دينار: ما رأيتُ أحداً أنصّ للحديث من الزهري.

يقول أحمد بن حنبل: الزهري أحسن الناس حديثاً وأجود الناس إسناداً.

عن قتادة: ما بقي أحدٌ أعلم بسنة ماضيةٍ منه.

عن ابن الطباع قال: سمعت سفيان يقول: لم يكن في الناس أحد أعلم بالسنة منه ـ يعني الزهري ـ.

وسئل ابن عيينة: أيهما أفقه أو أعلم، إبـراهيم النخعي أو الزهري؟ قال: لا أبا لك! الزهـري.

نقد مرسل الزهري:

قال يحيىٰ بن سعيد القطان: مرسلُ الزهري شرٌّ من مُرسَل غيره، لأنه حافظ، وكلٌّ ما قدر أن يُسمِّي سمَّى، وإنما يتركُ من لا يحبُّ أن يسمّيَه.

قال الذهبي: مرسل الزهري كالمعضل ـ وهو ما غاب من سنده أكثر من واحد ـ، لأنه يكون قد سقط منه اثنان.

ويقول الشافعي: إرسالُ الزهري ليس بشيء، لأنا نجدُه يروي عن سليمان بن أرقم.

مقدار حديث الزهري:

قال علي بن المديني: له نحو من ألفَيْ حديث. وقال أبو داود: حديثه ألفان ومئتا حديث، النصف منها مسند.

وفاتـه:

قال ابن سعد وخليفة والزبير: مات لسبعَ عَشْرة خلَت من رمضـان سنـة ١٢٤ هـ ـ وكـان عمـرُ سفيـانَ بنِ عيينـة نحـو سبع عشرةَ سنة ـ ومع ذلك سمع منه الكثير.

حرص سفيان على البحث عن كبار الشيوخ

كان سفيان بن عيينة ـ يرحمه الله ـ معروفاً بحرصه الشديد على البحث عن كبار الشيوخ من رواة الحديث، حدَّث مرَّةً ابن جُريج فقال: حدثنا رجل عن ابن عباس، فلبث يفكِّر: مَن هذا الرجل؟ وكيف روى عنه ابن جريج ـ وهو لا يعرفه ـ.. فما زال يبحث حتى ظفر بهذا الرجل.

يقول محمد بن ميمون قال: سمعت ابن عيينة يقول: حضرت ابن جريج فسمعته يقول: حدثنا رجل عن ابن عباس ـ كأنه يريد أن يُخفي اسمه ـ وحدثنا رجل عن ابن عباس، فقلت: ينبغي أن يكون هذا حيّاً، فلما كان يوم الجمعة تصفَّحت الأبواب، فإذا أنا بشيخ قد دخل من ههنا ـ وأشار ابن عيينة إلى بعض أبواب المسجد ـ، فقلت: رأيتَ ابنَ عباس؟ قال: نعم، سألتُ ابن عباس، ورأيتُ عبد الله بن عمر، وحدثنا ابن عباس وسمعت ابن عباس، فسمعت منه، فجلست مع ابن جريج، فلما قال: حدثنا رجل قال: سمعت ابن عباس. قلت: يا أبا الوليد حدثنا عبيد الله بن أبي يزيد عن ابن عباس. قال ـ أي ابن جريج ـ: غُصْتَ عليه يا غواص[1].

(١) تاريخ بغداد ٩/١٧٧.

قال علي بن المديني: سمعت سفيان قال: كان الزهريُّ ههنا، فقلت لزياد بن سعد: ـ كان أثبتَ أصحاب الزهري ـ: أرني كتابك، فقال: لا، أنت حافظ، تذهب تسأل عنها وأنا لا أدري.

كأنه يريد أن ينظر في الكتاب وهو سريع الحفظ فيلتقطها ويسأل عنها قبل أن يبثّها زياد بن سعد بين الناس.

قوة حافظته:

كان لسفيان حافظة بارعة، سريعة اللَّقْط، وبقيت هذه الحافظة حادَّة حتى في كِبَر سنه، وحسبُك دليلاً على ذلك قصته مع زياد بن سعد ـ القصة التي قُبيل هذا الكلام ـ حين منعه أن ينظر في كتابه، فيلتقط بعض الأحاديث التي يضِنّ بها زياد على سفيان. وكان يقول ابن عيينة «ما كتبت شيئاً قط إلا شيئاً حفظته قبل أن أكتبه»[1].

وقال مجاهد بن موسى: سمعت ابن عيينة يقول: «ما كتبت شيئاً إلا حفظته قبل أن أكتبه»[2].

قال أبو معاوية: قال سفيان: قال لي زهير الجعفي: أخرجْ كتبك، قلت: «أنا أحفظُ من كتبي»[3].

قال علي بن المديني: سمعت سفيان يقول: «كان أيوب ـ وهو أيوب بن موسى ـ إذا حدثني بالحديث ردَّدْتُه مرتين»[4] وهذا أدعى للحفظ والتمكّن.

---

(١) تاريخ بغداد ١٧٩/٧.
(٢) سير أعلام النبلاء ٤٦١/٨.
(٣) تهذيب التهذيب ١٢١/٤.
(٤) الجرح والتعديل.

الجرح والتعديل:

الجرح والتعديل علم من أهم علوم الحديث، إذْ بـه يوثق المحدِّث، أو يضعَّف، أو يُجهَّل، أو يُكذَّب، والجَرح المعلَّل مقدم على التوثيق. ولولا هذا الجرح والتعديل لاختلط الحابل بالنابل، ولما انتهى إلينا حديث صحيح، بل أساطير وأباطيل، ولكنّ الله تعالى كما حفظ كتابه فقال: ﴿ إنّا نحن نزّلنا الذكر وإنّا له لحافظون ﴾ ألهم أصحابَ رسول الله أنْ يحفظوا جميع أقوال رسول الله ﷺ وأفعاله وإقراره بل كل حركاتِه وسَكَناته، وجاء من بعدهم التابعـون فسمعوا وحفظوا ووَعَوْا وكانوا غايةً من الوعي والعناية والحفظ لهذا الإرث المحمدي كله.

والجرح والتعديل لم يتناول الصحابة رضوان الله عليهم لأنهم فوق ذلك، فنور النبوّة الذي شعّ عليهم منعهم أن يُحَدِّثوا عن رسول الله ﷺ ما لم يقل. ولكنّ التابعين ومن بعدهم جميعاً تحت ميزان الجرح والتعديل جليلهم وصغيرهم سواء، أما مَن بعدهم من أتباع التابعين كمالك وسفيان بن عيينة وسفيانَ الثوري وأمثالهم، فأجدرُ أن يُطبَّق عليهم مبدأ الجرحِ والتعديل، وكلما امتدّ الزمن وقلّ رادع التقوى والورع يشتدّ التحرِّي عن الرجال ومعرفة الصادق منهم من الكاذب أي جرحه وتعديله.

ألفاظ التعديل:

ألفاظ التعديل خمسة عند الذهبي والعراقي، أعلاها: ثِقة، أو مُتْقِن، أو ثَبْتٌ، أو حُجَّة، أو عَدْل حافظ ضابط، وهناك مَرْتبة أعلى من هذه، وهو ما كُرِّر فيه أحد هذه الألفاظ المذكورة، إمَّا بعينه،

كثقة ثقة، أو لا، كثِقة ثَبْت، أو ثِقةٍ حُجةٍ، أو ثقةٍ حافظٍ.

وزادها شيخ الإسلام أعلى من مرتبة التكرير، وهي الوصف بأفعل كأوثقِ الناس، وأثبتِ الناس، أو نحوه، كإليه المنتهى في التثبُّت ومنه: لا أحدَ أثبتُ منه.

وقد حَظِي سفيانُ بنُ عيينة بأعلى مرتبة ذكرها الذهبي وهي التكرير مرتين، الوصفُ نفسُه، أو غيره، فقد قيل فيه: كان ثقة صدوقاً، وقيل فيه ثقةٌ ثبتٌ، حتى وُصف بأفعل التفضيل وهي التي زادها شيخ الإسلام. وإليك ما وُصف به سفيان بن عيينة من ألفاظ التوثيق.

توثيق ابن عيينة:

قال اللالكائي ـ بمعرض تزكية سفيان بن عيينة ـ: هو مستغنٍ عن التزكية لتثبُّته وإتقانه. وأجمع الحفّاظ: أنه أثبت الناس في عمرو بن دينار[١] ـ وعمرو بن دينار عَلَم جليل من أعلام التابعين وتقدم القول فيه ـ.

وقال علي بن المديني: ما في أصحاب الزهري أتقنُ من ابن عيينة[٢]. وقال يحيى بن مَعين ـ وهو من أشهر العلماء في الجرح والتعديل ـ: سفيان بن عيينة أثبت من محمد بن مسلم الطائفي وأوثقُ منه، وهو أثبت من داود العطار في عمرو بن دينار، وأحبُّ إليَّ منه[٣]. ويقول عبد الرحمٰن بن يوسف بن خراش:

(١) تهذيب التهذيب ٤/١٢٢.
(٢) الجرح والتعديل ١/٥٢.
(٣) الجرح والتعديل ١/٥٢.

«سفيان بن عيينة كان ثقةً صدوقاً»[١]. وقال العجلي: ـ ابن عيينة ـ كوفيّ ثقةٌ ثَبْتٌ في الحديث[٢].

وقال ابن سعد ـ في ابن عيينة أيضاً ـ «وكان ثقة ثبتاً كثير الحديث»[٣]. وقال أحمد بن عبد الله العجلي: كان ابن عيينة ثبتاً في الحديث. وقال عبد الرزاق الصنعَاني: حدثت معمراً بحديثٍ عن سفيان بن عيينة فقال: «إن صاحبَك لثقة»[٤].

وروى إسحاق الكوسج عن يحيىٰ: ثقة ـ أي ابن عيينة[٥] ـ.

شهادة كبار الرجال لسفيان وثناؤهم عليه:

لم يختلف كبار العلماء في رفع شأن سفيان وإكباره. وأكثر ما تحدّث هؤلاء الكبار عن كبير شأنه في الحديث، وندرة مثله. وإليك بعض ذلك:

أثبت أصحاب الزهري:

قال عبد الرحمٰن سمعت أبي ـ أبا حاتم الرازي ـ يقول: أثبت أصحاب الزهري: مالك وابن عيينة[٦]. وقال الذهبي: «ما في أصحاب الزهري أصغرُ سناً منه، ومع هذا فهو من أثبتهم»[٧].

---

(١) تاريخ بغداد ٩/١٨٣.
(٢) تهذيب التهذيب ٤/١١٩.
(٣) طبقات ابن سعد ٥/٤٩٨.
(٤) الجرح والتعديل ١/٥٢.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٤.
(٦) الجرح والتعديل ١/٥٢.
(٧) ميزان الاعتدال.

يقـول يحيى بن سعيد: ابنُ عيينـة أحبُّ إليَّ في الزهـري من مَعْمر[١]. وقال عليّ بن المديني: ما في أصحاب الزهري أحدٌ أتقنَ من سفيانَ بن عيينة[٢]. وقال صالح بن أحمد بن عبد الله العجلي، حدثني أبي يقول: هو أثبت الناس في حديث الزهري، وكان حسنَ الحديث، وكان يُعَدُّ من حكماء أصحاب الحديث[٣].

يقول الشافعي: سمعت مسلم بن خالد الزنجي يقول: أنا سمعت هذه الأحاديث من الزهري بعقل ابن عيينة لا بعقلي، قال: وذاك أني كنت أجلس إلى الزهري فيقول: ما اسمُ هذا الجبل؟ ما اسم هذا الشِّعب؟ وجـاء سفيان فسـأله عن هـذه الأحاديث فسمعتها بعقله لا بعقلي[٤].

قيل لعلي بن المديني: من تُقدِّمُ في الزهري؟ قال: أمَّا أنا فإني أقدم سفيانَ بـن عيينة[٥].

سفيان وشيخه ابن دينار:

الأمر الذي لا يشك فيه أحد من السلف والخلف أن سفيان بن عيينة ألزمِ الحفّاظ لعمرو بن دينار وأخذَ عنه ما لم يستطع أن يسمع غيرُه بعضَه. وتقدم أنه غلبه على وسادته. وإليك بعض ما قيل في ذلك:

---

(١) الجرح والتعديل ١/٥١.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٨.

(٣) تاريخ بغداد ٧/١٧٩.

(٤) الجرح والتعديل ١/٣٢.

(٥) تاريخ بغداد ٩/١٧٨.

يقول شعبة: «من أراد عمرو بن دينار فعليه بالفتى الهلالي»[1].
وسئل يحيىٰ بن معين عن حديث شعبة عن عمرو بن دينار، والثوري عن عمرو بن دينار، وسفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار؟ فقال: سفيان بن عيينة أعلمهم بحديث عمرو بن دينار، وهو أعلم بعمرو بن دينار من حماد بن زيد[2].

وقال يحيىٰ بن معين أيضاً: «ابن عيينة أكبرهم في عمرو بن دينار وأرواهم عنه»[3].

وقال عبد الرحمٰن ـ ابن أبي حاتم ـ سمعت أبي يقول: وكان ابن عيينة أعلمَ بحديث عمرو بن دينار من شعبة، وكان ابن عيينة إماماً ثقة[4]. قال أحمد بن محمد بن الأثرم: سمعت الإمام أحمد بن حنبل يقول: أعلمُ الناس بعمرو بن دينار. ابن عيينة[5].

وقال يحيىٰ بن معين: «ابن عيينة أروى الناس عن عمرو وأثبتهم فيه، وهو أعلم بعمرو من الثوري»[6].

يقول عثمان بن سعيد الدارمي: سألتُ يحيىٰ بن معين: قلت له: ابن عيينة أحبُّ إليك في عمرو بن دينار أو الثوري؟ قال: ابن عيينة أعلم به. قلت: فابن عيينة أحبُّ إليك في عمرو أو

---

(١) تاريخ بغداد ٩/١٨١.
(٢) الجرح والتعديل ١/٣٦.
(٣) الجرح والتعديل ١/٣٣.
(٤) الجرح والتعديل ١/٥٢.
(٥) تاريخ بغداد ٩/١٨١.
(٦) تاريخ بغداد ٩/١٨٠.

الثوري؟ فقال: ابن عيينة أعلم به. قلت: فشعبة؟ قال: وأيْش روى عنه شعبة، إنما روى نحو مئة حديث.

وقال أبو حاتم الرازي: سفيانُ بن عيينة إمامٌ ثقة، كان أعلم بحديث عمرو بن دينار من شعبة، قال: وأثبتُ أصحاب الزهري هو ومالك[1].

أول من سمى سفيان حافظاً:

قال سفيان: دخلت الكوفة ولم يتم لي عشرون سنة، فقال أبو حنيفة لأصحابه ولأهل الكوفة: جاءكم حافظُ عِلم عمرو بن دينار، قال: فجاء الناس يسألونني عن عمرو بن دينار، فأول من صيَّرني محدِّثاً أبو حنيفة[2] رحمه الله.

أول من أسنده إلى الأسطوانة ليحدِّث:

قال غياث بن جعفر: سمعت ابن عيينة يقول: أول من أسندني إلى الأسطوانة ـ عالماً حافظاً محدثاً يعلّم الناس ويسمعون روايته عن التابعين ـ مِسْعَرُ بن كِدام ـ هو من الأعلام الكبار روى عنه أمثال شعبة والثوري وهما من أقرانه، وروى عنه أيضاً ابن عيينة ـ فقلت له: إني حَدَث ـ أي لا أزال صغير السنّ عن الجلوس للتحديث مع أجلّاء التابعين ـ قال: إنّ عندك الزهري وعمرَو بن دينار. أي حسبك روايتك عن هذين العلمين الجليلين[3].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٤.
(٢) وفيات الأعيان ٢/٣٩٣.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٠.

الثناء على سفيان أنه خير الحفّاظ وأتقنهم:

قال عبد الله بن المبارك: سئل سفيان الثوري ـ وهو محدث كبير وحافظ ومجتهد ـ عن سفيان بن عيينة؟ فقال: ذاك أحدُ الأحدِين ـ يقول: ليس له نظير(١).

عن صالح عن أبيه الإمام أحمد قال: قال أبي: ما رأيت أحداً أعلمَ بالسنن من سفيان بن عيينة(٢). ويقول: ما رأينا نحن مثله.

قال الغِلابي: قلت ليحيىٰ بن سعيد القطان: من أحسن من رأيتَ حديثاً؟ قال: ما رأيت أحداً أحسنَ حديثاً من سفيان بن عيينة(٣).

حدثنا سليمان بن أبي شيخ حدثني بعض أصحابنا قال: رأيتُ حماد بن زيد ـ الثقة الثبت الفقيه ـ قدّام سفيان بن عيينة كأنه صبيّ قُدّام معلّمه(٤).

قال عثمان بن زائدة: قلت لسفيان الثوري ممن نسمع؟ قال: عليكَ بابن عيينة(٥).

قال علي ـ المديني ـ سمعت بشر بن المفضل يقول: ما بَقي على وجه الأرض أحدٌ يشبه ابن عيينة(٦).

---

(١) الجرح والتعديل ١/٣٣.
(٢) الجرح والتعديل ١/٣٣.
(٣) تاريخ بغداد ٩/١٨٢.
(٤) تاريخ بغداد ٩/١٨٢.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٢.
(٦) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦١.

وقال ابن المديني: قال لي يحيىٰ القطان: ما بقي من معلّمي أحدٌ غيرَ سفيان بن عيينة، وهو إمامٌ منذ أربعين سنة[١].

وقال أبو عيسى الترمذي: سمعت محمداً ـ يعني البخاري ـ يقول: ابنُ عيينة أحفظُ من حماد بن زيد[٢].

وقال عبد الرحمٰن بن مهدي: كان ابنُ عيينة من أعلم الناسِ بحديث الحجاز[٣]. وقال بَهْز بن أسد ـ ثقة ثبت ـ: ما رأيت مثلَ سفيان بن عيينة ولا أجمعَ منه. فقيل: ولا شعبة؟ قال: ولا شعبة[٤].

وقال يحيىٰ بن آدم ـ ثقة حافظ فاضل من كبار التاسعة ـ يقول: ما رأيت أحداً يُختبر في الحديث إلا ويُخطىء إلَّا سفيانَ بن عيينة[٥].

وقال علي: وسمعت بشر بن المفضل ـ ثقة ثبت عابد ـ يقول: ـ وقال بيده على الأرض أي أشار ـ: ما بَقي على وجه الأرض أحدٌ يُشبه سفيان بن عيينة[٦].

قال علي بن المديني: سفيان بن عيينة أحسنُ حديثاً من سفيان ـ أي الثوري ـ وشُعبة[٧].

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٧ ـ ٤٥٨.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٧.
(٤) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٨، وتاريخ بغداد ٩/١٨٠.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٤.
(٦) تاريخ بغداد ٩/١٨٠.
(٧) تاريخ بغداد ٩/١٩٠.

وقال نعيم بن حمّاد: ما رأيتُ أحداً أجمعَ لمفترقٍ من سُفيان بن عيينة[١].

وقال ابنُ حبان في الثقات: كان ـ أي ابن عيينة ـ من الحفّاظ المتقنين، وأهل الورع والدين[٢].

ودخل الأَوْزاعي وسفيان على مالك فلما خرجا قال: أحدُهُما أكثرُ علماً من صاحبه، ولا يصلح للإمامة، قلت لأبي عبد الله: فمن الذي عنى مالك أنه أعلم الرجلين، هو سفيان؟ قال: نعم، هو سفيان أوسعهما علماً[٣].

جزالة العلم:

قال الإمام الشافعي رحمه الله: ما رأيت أحداً مِن الناس فيه جزالة العلم ما في ابن عيينة[٤]. ـ جزالة العلم: قوّته وكثرته وقوة العقل فيه ـ.

ابن عيينة سيّد الناس:

هكذا لقّبه الخليفة هارون الرشيد، وذلك بما رواه الربيع النحاس قال: تلقّيتُ هارونَ أمير المؤمنين، فسألني عن عِلْيةِ الهاشميين ثم قال: ما فعل سيِّدُ الناس؟ قلت: يا أمير المؤمنين، ومَن سيد الناس غيرُك؟ قال: سيدُ الناس سفيانُ بن عيينة[٥]!!

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٢.
(٢) تهذيب التهذيب ٤/١٢٢.
(٣) طبقات الشيرازي ٨٥.
(٤) تهذيب التهذيب ٤/١٢٠.
(٥) تاريخ بغداد ٩/١٧٩.

ما أكيَسه:

الكيِّسُ: العاقلُ الظَّريف المهذّب، قال ابنُ أبي الحُنين: سمعت أبا غسان يقول: ما كان أكيَسَه ـ يعني سفيان بن عيينة[1] ـ.

حسن المنطق:

قال عبد الرزاق الصنعاني: ما رأيت بعدَ ابنِ جريج مثلَ ابن عُيينة في حسن المنطق[2].

ملاحظ على بعض كبار المحدثين:

قدّمنا شيئاً عن التعديل ودرجاته، ونذكر هنا شيئاً عن الجرح. فالجرح: وصفٌ متى التحق بالراوي والشاهد سقط الاعتبار بقوله. ومطلق الجرح يُبطل الثقة كما قال بعضهم، ومطلق التعديل لا تحصل به الثقة، وطبقات المجروحين كثيرة، ذكر الحاكم منها عشر طبقات. وأقل العشرة قوم كتبوا الحديث ورحلوا فيه وعُرفوا به، فتَلِفَت كتبهم بأنواع من التَّلَف، فلمّا سُئلوا عن الحديث حدّثوا به من كتب غيرهم، أو من حفظهم على التخمين، فسقطوا بذلك[3].

وملاحظه إما في التعديل أو في النقد أو التضعيف.

جملة حديث سفيان:

قال أحمد بن عبد الله العجلي: «كان حديث ابنِ عيينة نحواً من سبعةِ آلاف، ولم تكن له كتب». وكانت هذه الأحاديث مكنونة في حافظته، لا يخطىء فيها، ولا يتعثّر بأسانيدها وهذا أمرٌ نادر مثله.

---

(١) تاريخ بغداد ٩/١٨٣.

(٢) الجرح والتعديل ١/٥٣.

(٣) ابن الأثير في مقدمة جامع الأصول ١/١٤٤.

شهادة العلماء المؤلفين وثناؤهم:

قال صاحب «الحلية» المحدِّث الكبير أبو نعيم: كان ـ أي سفيان بن عيينة ـ عالماً ناقداً، وزاهداً عابداً، علمُه مشهور، وزهده معمور[1].

وقال الخطيب في «تاريخ بغداد»: فأما سفيان فكان له في العلم قدرٌ كبير ومحلٌ خطير، أدرك نيفاً وثمانين نفساً من التابعين[2].

وقال ابنُ خَلِّكان: كان إماماً، عالماً، ثبتاً، حجةً، زاهداً، ورِعاً، مجمَعاً على صحة حديثه وروايته[3].

وقال الذهبي في ابن عيينة: وطلبَ الحديث وهو حدَث، بل غلام، ولقِي الكبار، وحمل عنهم علماً جمّاً، وأتقن، وجوَّد، وجمع وصنف، وعُمِّر دَهراً، وازْدحم الخلق عليه، وانتهى إليه علوُّ الإسناد، ورُحِل إليه من البلاد، وألْحق الأحفاد بالأجداد[4].

وقال: اتفقت الأئمة على الاحتجاج بابن عيينة لحفظه وأمانته[5].

وقال: أحدُ الثقات الأعلام، أجمعت الأمَّة على الاحتجاج به[6].

---

(١) الحلية ٧/٢٧٠.
(٢) تاريخ بغداد ٩/١٧٤.
(٣) وفيات الأعيان ٢/٣٩١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٥.
(٥) تذكرة الحفّاظ ١/٢٦٤.
(٦) ميزان الاعتدال ٢/١٧.

قال علي بن المديني: سمعت سفيان بن عيينة ـ وقيل له: رَوَى زُرارة بن أعْيَن عن أبي جعفر كتاباً ـ فقال سفيان: ما رأى هو أبا جعفر، ولكنه كان يتتبّع حديثَه. قال سفيان: كانوا ثلاثةَ إخوةٍ: عبدَ الملك بن أعْيَن، وحُمْران بن أعين، وزُرارة بن أعين ـ وكانوا شيعة ـ.

وسُئل ابن عيينة عن محمد بن إسحاق: قيل له: لم يروِ أهل المدينة عنه!! فقال سفيان: جالستُ ابن إسحاق منذ بضع وسبعين سنة، وما يتهمه أحد من أهل المدينة، ولا يقول فيه شيئاً.

أقول: إلا مالك فإنه كان يقول فيه: دجّال من الدجاجلة ـ ولم يجمع أحدٌ دجَّال على دجاجلة إلا مالك ـ وذلك لأمور كانت بينهما.

قال علي بن المديني: قلت لسفيان: إن ليثاً روى عن طلحة بن مصرِّف عن أبيه عن جدِّه أن النبي ﷺ توضأ؟ فأنكر سفيان وعجب منه أن يكون جَدّ طلحة لقي النبي ﷺ.

عن علي ـ ابن المديني ـ قال: سألت سفيان عن جعفر بن محمد بن عباد بن جعفر، وكان قدم اليمن، فحملوا عنه شيئاً، قلت لسفيان: روى معمر عنه أحاديث يحيىٰ بن سعيد، فقال: إنما وجد ذلك كتاباً، ولم يكن صاحبَ حديث، أنا أعرفُ بهم، إنما جمع كتباً فذهب بها.

وعن علي ـ يعني ابن المديني ـ قال: سمعت سفيان وسئل عن عبد الأعلى التيمي الذي روى عنه مِسْعر، قال سفيان: كان قاصّاً.

أقول: والقصاص ما كانوا يبالون إذا روَوْا حديثاً إن كان أتى على وجهه الصحيح أم لا، هذا إذا لم يتعمّدوا رواية الضعيف والموضوع ـ وقد يضعون ـ.

وقال علي: قلتُ لسفيان: زكريا بن إسحاق لم يجالس عطاء؟ قال: لا، قيل لسفيان: إنهم حكَوْا عنك أن زكريا بن إسحاق قال: أخرج إلينا عطاء صحيفة، فقال سفيان: لا، إنما أراني صحيفةً عنه ما هي بالكبيرة، فقال: هذه أعطانيها يعقوب بن عطاء، وقال: هذه التي سمع أبي من أصحاب النبي ﷺ فوجدتُ فيها أشياء سمعت من عمرو وغيره وأشياء سمعناها لم تكن في الصحيفة.

علي بن المديني يقول: سمعت سفيان بن عيينة يقول: كنا نتقي حديث داود بن الحصين[1].

عن محمد بن عمرو بن العباس الباهلي: أخبرنا سفيان ـ يعني ابن عيينة ـ قال: قال مطرِّف بن طريف: ما يَسرُّني أني كذبت، وأن لي الدنيا وما فيها.

قال نعيم بن حمّاد: قال ابن عيينة: ما رأيتُ أحداً يُحْمَل عنه من الأحاديث المرسلة ما تحمل عن ابن المنكدر.

يقول أبو معمر القطيعي: كان ابن عيينة لا يحمد حفظ ليث بن أبي سليم.

قال علي بن ميمون الرقّي: سمعتُ سفيان: وسئل عمّا رواه عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه؟ فقال: غيره أجود منه.

(١) مع أنه ثقة إلا في عكرمة، ولعله لأنه يرى رأي الخوارج كما في «التقريب».

بشر بن عمر يقول: سمعت ابن عيينة يقول: عليك بزهير بن معاوية فما بالكوفة مثله.

وقال علي بن المديني: سمعت سفيان يقول: ما كان أشدَّ انتقاء مالك بن أنس للرجال وأعلمَه بشأنهم - وهذه شهادة النظير بالنظير -.

عن خالد بن نزار عن سفيان - ابن عيينة - قال: أعلم الناس بحديث عائشة ثلاثة: القاسم بن محمد، وعروةُ بن الزبير، وعَمْرةُ بنت عبد الرحمٰن.

قال الإمام أحمد: حدثنا سفيان - ابن عيينة -: سليمان بن أبي المغيرة ثقة خيار، وقال علي: سمعت سفيان يقول: جئتُ إلى صالح مولى التوأمة، فسألته كيف سمعت ابن عباس؟ فقالوا: إنه قد اختلط فتركته.

حدثنا عمرو بن محمد الناقد حدثنا سفيان - ابن عيينة - قال: ما كان بالكوفة بعد عربيين إبراهيم والشَّعبي مثل مَوْلَيَيْن الحكم وحماد.

أبو رزمة قال: حدثنا ابن عيينة قال: كنتُ إذا سمعت الحسن بن عمارة يروي عن الزهري وعمرو بن دينار جعلت أصبعي في أذني.

أقول: وذلك للاتفاق على ضعفه - كما في تهذيب التهذيب -.

يقول نعيم بن حماد: سمعت ابن عيينة يقول: إن العالِمَ: الذي يُعطي كلَّ حديث حقَّه.

قال الشافعي: قال لي ابن عيينة: الجلد بن أيوب أعرابي لا يعرف الحديث.

وقال الشافعي: سمعت ابن عيينة: فُضيل بن مرزوق ثقة. وعطية بن سعد ما أدري من عطية؟!

وقال سفيان بن عيينة: ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من سفيان الثوري.

وهكذا حتى أقبل الناس عليه إقبالاً منقطع النظير يسمعون منه أعالي الحديث التي يحدِّث فيها عن التابعي عن الصحابي عن النبي ﷺ، وفيهم كبار العلماء المجتهدين، وكبار المحدثين، فما يسكت قليلاً ليستريح إلا وتنهال عليه الأسئلة من كل جانب، عن أحاديث جَهِل بعضُهم لفظها، وبعضُهم سنَدَها وبعضُهم مَعناها، وأكثرهم يسمعها ليكتب وليحفظ، ولئن فاته سماع هذا الشيخ الجليل لم يستطع أن يسمع مثله عُلُوّاً وإتقاناً وضبطاً.

قال يحيىٰ بن عبد الحميد الحِمّاني: كنتُ في مجلس سفيان بن عيينة وكان في مجلسه ألفُ رجل يزيدون أو ينقصون(١).

ألف رجل والكثرة الكاثرة منهم علماء ومحدثون، جاؤوا إلى سفيان يَزْدادون علماً ويسمعون ويكتبون فإن لم يجدوه في المسجد قصدوه إلى دارِه، وما كانوا يبالون حاله أمستريح هو من عَنَت الناس، أم نائم؟ أم يأكل أم يصلي؟! المهم أن يدخلوا عليه ويستمعوا حديثه بإذن أو بغير إذن.

قال سليمان بن مطر: كنا على باب سفيان بن عيينة، فاستأذنّا عليه، فلم يأذن لنا، فقالوا: ادخُلوا حتى نهجم عليه، قال:

---

(١) الحلية ٧/٢٩٣.

فكسرنا بابه، ودخلنا وهو جالس، فنظر إلينا فقال: سبحان الله دخلتم داري بغير إذني، وقد حدثنا الزهري عن سهل بن سعد: «أن رجلاً اطَّلع في جحر من باب النبي ﷺ ومع النبي ﷺ مِدْرى يحكّ بها رأسه، فقال: لو علمتُ أنك تنظرني لطعنتُ بها في عينك، إنما جُعل الاستئذان من أجل النظر»(١).

قال: فقلنا: نَدِمنا يا أبا محمد، فقال: ندمتم، حدثنا عبد الكريم الجزري عن زياد عن عبد الله بن معقل عن عبد الله بن مسعود: أن النبي ﷺ قال: «الندمُ توبة»(٢). اخرجوا فقد أخذتم رأس مال ابن عيينة(٣).

وأقبلوا مرة وهو في ضيق ونصب وسألوه أن يحدّثهم فقال: ما أراكم للحديث مَوضِعاً، ولا أَراني أن يُؤخذ عني أهلاً، وما مثلي ومثلكم إلا ما قال الأول: «افتضحوا فاصْطلحوا»(٤). وإنما قال ذلك إما لأنه ضاقَ بهم أو لأنه فعلاً لم يرهم أهلاً للسماع، وجعل نفسه وإياهم سواء في عدم أهليته للإسماع وعدم أهليتهم للسماع، ليهون عليهم كلامه وإلا فإذا كان سفيان ليس أهلاً للإسماع فما أحد في عصره بأولى منه بذلك.

ويقول ابن عيينة: رأيت كأنّ أسناني سقطت، فذكرتُ ذلك

---

(١) هذا الحديث في البخاري ١٢/٣١٥، ومسلم رقم (٢١٥٧)، وأبو داود رقم (٥١٧١) والترمذي رقم (٢٧٠٩)، والنسائي ٧/٦٠ بألفاظ فيها بعض اختلاف.

(٢) مسند أحمد ١/٣٧٦ وتاريخ البخاري والحاكم.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٣.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٧.

للزهري فقال: تموت أسنانك وتبقى أنت، قال: فمات أسناني وبقيت أنا، فجعل الله كل عدوٍّ لي محدثاً.

قال الذهبي: قال هذا من شدّة ما كان يلقى من ازدحام أصحاب الحديث عليه حتى يُبْرِموه [1] - أي يُضجروه -.

هذا العناء والنصب من كثرة الآمِّين لسماع حديثه وعلمه إنما هو ضريبة العالم المحدث الكبير، يُسلَب منه راحته ونومه، فلا يستطيع أن يجد لنفسه ساعة يسترخي فيها أو ينام أو يقرأ، أو يراجع ما أسمع.

صفته إذا حدّث:

لكلِّ عالِم أو محدِّث صفةٌ خاصة به حين يحدث، فمنهم من يحدث وهو كالخَشبة لا يتحرك فيه إلا لسانه وشفتاه، ومنهم من يتحدث ويتحدث معه يداه، ومنهم من يتحدث ويتحدث معه فمه ورأسه ويداه ورجلاه، وداعيه لهذا غالباً اهتمامُه بما يقول، وحرصه على إفهام الناس وإدخال العلم إلى عقولهم ما أمكنه ذلك.

وكان إمامنا ابن عيينة كذلك إذا حدّث تحرك جسمه كلُّه اهتماماً بما يحدث. ولذلك قال علي بن حرب الطائي: سمعت أبي يقول: «أحبُّ أن يكون لي جارية في غُنْج سفيان بن عيينة إذا حدّث» [2]. وأربأ بسفيان أن نسمِّي حركاتِه بالغُنج كما سماه حرب الطائيّ، فهذه بالنساء الخُلعاء أشْبه، وقبيح أن نصف محدِّثاً كبيراً وعالماً جليلاً بهذا الوصف ولو على التشبيه.

(١) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٦٠.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٥٩.

هل كان سفيان بن عيينة يدلس؟:

التدليس في المصطلح: أن يرويَ عمن لقيه ما لم يسمعه منه، أو عمّن عاصرَه ولم يلقَه.

وأدواتُه: عَن فلان، أو قال فلان، فهاتان عن وقال قد تفيدان أنه سمع منه، وقد لا تفيدان، وليس فيها كذب، ولكن فيها تدليس إذ بهذا يتوهَّم المستمع أنه تلقى الحديث من المَروِيِّ عنه مباشرةً أو سمعه، ولم يَكن الأمر كذلك، ولو صرَّح بالسماع من شيخه ولم يكن سمع منه فهو كاذب يُرَدُّ حديثه.

وقد ندَّد كثير من المحدثين بالتدليس، فقال الشافعي عن شعبة: التدليس أخو الكذب. ومن الحفّاظ من جَرَح من عُرف بهذا التدليس من الرواة فَرَدَّ رِوايته مطلقاً، وإن أتى بلفظ الاتصال.

قال ابن الصلاح: والصحيح التفصيل بين من صرَّح بالسماع فيُقبل وبين من أتى بلفظ محتمل فيُردّ.

أمَّا من دَلَّس عن ثقة ـ أي حذف في الرواية الشيخَ الثقة ـ وتَعدَّاه إلى من فوقه ـ فهذا مقبول، وإن كان الأَوْلى أن يذكره.

وهكذا كان سفيان بن عيينة، فقد عمدَ إلى أحاديثَ رُفعتْ إليه من حديث الزهري، فيحذف مَن حدَّثه ويدلِّسها، إلا أنه لا يُدلس إلَّا عن ثقةٍ عنده (١).

قال ابنُ حبان في صحيحه: «وأما المدلِّسون الذين هم ثقات وعدول فإنا لا نحتج بأخبارهم إلا ما بيّنوا السماع فيما روَوْا، مثل

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٥.

الثوري، والأعمش، وأبي إسحاق وأضرابهم من الأئمة المتقنين، وأهلِ الورع والدين، لأنّا متى قَبلنا خبرَ مُدلِّس لم يُبيِّن السماعَ فيه وإن كان ثقة لزمنا قبولُ المقاطيع والمراسيل كلِّها، لأنه لا يُدرى لعل هذا المدلِّس دَلَّس هذا الخبرِ عن ضعيف يَهي الخبرُ بذكره إذا عُرف. اللهم إلا أن يكون المدلِّس يُعلَم أنه ما دلّس قطُّ إلا عن ثقة، فإذا كان كذلك قُبلت روايته وإن لم يبيِّن السماع وهذا ليس في الدنيا إلا سفيانُ بن عيينة وحدَه، فإنه كان يدلِّس ولا يُدلِّس إلا عن ثقةٍ متقِن، ولا يكاد يوجد لسفيان بن عيينة خبر دلَّس فيه إلا وُجد ذلك الخبر بعينه قد بيَّن سماعَه عن ثقةٍ مثلِ نفسِه، والحكْمُ في قبولِ رِوايته لهذه العلة وإن لم يبيِّن السماع فيها كالحكْم في رواية ابن عباس إذا روى عن النبي ﷺ ما لم يسمع منه»(١).

مالك وابن عيينة:

الإمام مالك شيخ المدينة غير مُدافع، في الحديث والفقه والفتاوى، وقد اعترف له بذلك الخاص والعام، وإن أنكر ذلك عليه بعض كبار علماء المدينة كابن أبي ذئب.

والإمام سفيان بن عيينة شيخ مكة وشيخ حرمها لا يُنازَع في ذلك فهو المحدث والحافظ الأكبر والعالم والفقيه.

فمن العلماء من جعلهما في الإتقان والعلم والحفظ في درجة واحدة ومنهم من يرى في مالك ما يفوق به سفيان. ومنهم من يرى في ابن عيينة ما يفوق الإمام مالكاً.

---

(١) ابن حبان في صحيحه ١/ ١٥٠.

يقول الإمام الشافعي: «لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز»(١).

وقد سمع الشافعي من ابن عيينة ومالك، فهو بهما من أبصر الناس، ويقول: «لولا مالك وابنُ عيينة من كان يحفظ أحاديث أهل الحجاز»(٢)، ويقول: «مالك وابن عيينة القرينان»(٣).

وقال أبو حاتم الرازي: «أثبت أصحاب الزهري مالكٌ وابنُ عيينة».

ويقول الإمام أحمد: وعند مالك عن الزهري نحو من ثلاث مئة حديث. وكذا عند ابن عيينة نحو الثلاث مئة(٤).

في جميع ما تقدم بدا أنهما مستويان في درجة العلم. وهناك من رجّح أحدهما على الآخر، فمنهم من رجّح مالكاً على سفيان ومنهم من رجّح سفيان على مالك. وإليك بعض ذلك.

روى القعنبي عن ابن عيينة قال: «ما ترك مالك على ظهر الأرض مثله»(٥).

قال الإمام أحمد: كنت أنا وابن المديني فذكرنا أثبت من يروي عن الزهري، فقال علي ـ هو ابن المديني ـ: سفيان بن عيينة، وقلت أنا: مالك، فإن مالكاً أقلّ خطأً، وابن عيينة يخطىء في نحو

(١) تاريخ مكة ٤/٥٩١.
(٢) مناقب الشافعي للبيهقي ١/٥٨٨.
(٣) مناقب الشافعي ١/١١٩.
(٤) ميزان الاعتدال ٢/١٧٠.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/١١٠.

من عشرين حديثاً عن الزهري، ثم ذكرتُ ثمانية عشر منها. وقلت: هات ما أخطأ فيه فجاء بحديثين أو ثلاثة، فرجعت فإذا ما أخطأ فيه سفيان بن عيينة أكثر من عشرين حديثاً(١).

وبقي عليٌّ بن المديني يفضّل سفيان على مالك، يقول علي بن المديني: سألت يحيى بن سعيد فقلت: «أيّما أحبُّ إليك رأيُ مالك أو رأيُ سفيان، فقال سفيان: لا نشكّ في هذا، ثم قال يحيى: وسفيان فوق مالك في كل شيء»(٢).

يقول البويطي: سمعتُ الشافعي يقول: «أصول الأحكام نَيِّف وخمس مئة حديثٍ كلُّها عند مالك إلا ثَلاثين حديثاً، وكلها عند ابن عيينة إلا ستةَ أحاديث» رواته ثقات.

وهذه مناظرة صغيرة بين مالك وابن عيينة ترجِّح أحدهما على الآخر:

قال علي بن المديني: كنت جالساً عند مالك بن أنس فإذا سفيان بن عيينة يستأذن بالباب، فقال مالك: رجلٌ صالح صاحبُ سنّة أَدْخلوه، فدخل فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد السلام فقال: سلام خاصّ وعامّ عليك ـ يا أبا عبد الله ـ ورحمة الله، فصافحه مالك، وقال: لولا أنها بدعةٌ لعانقناك، فقال سفيان: قد عانق من هو خير منا رسولُ الله ﷺ. فقال مالك: جعفراً؟ قال: نعم، فقال مالك: ذاك حديث خاص يا أبا محمد

---

(١) طبقات الشيرازي ٨٥.

(٢) التذكرة ١/٢٦٣.

ليس بعامّ، فقال سفيان: ما عَمَّ جعفراً يعمنا، وما خصَّه يخصّنا إذا كنا صالِحَيْن، أفتأذن لي أن أحدِّث في مجلسك؟ قال: نعم يا أبا محمد فقال: حدثني عبد الله بن طاوس عن أبيه عن عبد الله بن عباس «أنه لما قدم جعفر من أرض الحبشة اعتنقه النبي ﷺ، وقَبَّل بين عينيه، وقال: جعفر أشبهُ بي خَلْقاً وخُلُقاً»[١].

علمه بالقرآن وتفسيره والحديث وشرحه:

من المحدثِين من شغلهم البحث في الحديث عن كلِّ شيء، فواصلوا من أجله الرحلات، وطلبوا فيه علوَّ السَّنَد، وجمع الطرق الكثيرة والمتون الغريبة، وهذا أقصى مَرامِهم، وحَسِبوا أنّ هذا يغنيهم عن التفقّه في دين الله، فلو أن أحدهم سألَهم عن حكم فقهي صغير لأبلس، بل ربما لا يفهم المرادَ من الحديث الذي يحفظ، ولذلك قيل عن أمثال هؤلاء (زوامل أسفار).

ولكنّ المتقدمين من التابعين وأتباعهم كسعيد بن المسيّب وهو الرأس في التابعين الأوائل وما بعده كالزهري وعمرو بن دينار ونافع وأمثالهم، ثم من بعدهم كمالك وابن عيينة، ثم من أخذ عنهم كالشافعي وعلي بن المديني وأحمد، ثم من بعدهم كالبخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي: تفقّهوا بحديث رسول الله ﷺ، وتبويبُهم كتبهم على أبواب الفقه دالٌّ على ذلك، بل منهم مجتهدون، والأصل أنّ كلَّ محدّث مجتهد.

قلت هذا بمعرِض عِلم الإمام سفيان بن عيينة في تفسير القرآن

---

(١) ميزان الاعتدال ٢/٢٤١.

وفهم دقائقه والحديث النبوي ورقائقه، واعتراف كبار العلماء له في ذلك:

قال عبد الله بن وهب: «لا أعلم أحداً أعلمَ بالتفسير من ابن عيينة»[1]. وقال نعيم بن حماد: قلت لعبد الرحمٰن بن مهدي: أينَ ابنُ عيينة من الثوري؟ فقال: «عند ابن عيينة من معرفته بالقرآن وتفسير الحديث، وغوصِه على حروفٍ متفرِّقة يجمعها ما لم يكن عند الثوري»[2].

وقال نعيم أيضاً: «كان ابنُ عيينة من أعلم الناس بالقرآن، وما رأيت أحداً أجمعَ لمتفرِّق منه»[3].

سئل سفيان عن قول الله عز وجل: ﴿إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان﴾[4] فقال: العدل: الإنصاف. والإحسان: التفضُّل.

وسئل لأيِّ شيء سمَّى اللهُ عز وجل نفسَه (المُؤْمِن) قال: «يُؤمِّن عذابُه بالطاعة»[5].

سئل سفيان بن عيينة عن قوله تعالى: ﴿لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون﴾[6]، قال: «أُنزل عليهم القرآن بمكارم الأخلاق، فهم الذين يَشْرفون بها، ويَفْضُل بعضُهم بعضاً بها، من

---

(١) تاريخ مكة ٤/٥٩٢ وتذكرة الحفّاظ ١/٢٦٣.

(٢) تاريخ بغداد ٩/١٨٢.

(٣) الجرح والتعديل ١/٣٣ ـ ٣٤.

(٤) النحل: ٩٠.

(٥) الحلية ٧/٢٩١.

(٦) الانبياء: ١٠.

حسن الجوار، ومن وفاءٍ بالعهد، ومن صدقِ الحديث، ومن أداءِ الأمانة، فقال: إنما جاءكم القرآن بمكارم أخلاقكم التي كنتم بها تشرفون وتعظمون، انظروا هل جاء بشيء مما كنتم تعيبون من الأخلاق القبيحة التي كنتم تعيبونها»(١).

وسئل سفيان بن عيينة عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿ تَتَجَافَى جنوبُهم عن المضاجِعِ يَدعُون ربَّهم خوفاً وطَمَعاً، ومما رَزَقْناهم يُنفقون ﴾(٢) قال: هي المكتوبة. ﴿ ومما رَزَقناهم ينفقون ﴾ قال: القرآن، ألم تسمع إلى قوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾(٣) إلى قوله عز وجل ﴿ ورزقُ ربك خيرٌ وأبقى ﴾(٤). وقال رسول الله ﷺ: «ما من صدقة أفضل من قول»، قال سفيان: ولا قول أفضل من القرآن، ألا ترى أنه ليس شيء أفضل من قول «لا إله إلا الله» ولا قول أعظم ولا أشرّ(٥) من الشرك، قال الله تعالى: ﴿ كَبُرَت كلمة تخرج من أفواههم ﴾(٦)، وقال: ﴿ تكاد السموات يتفطّرن منه وتنشقُّ الأرض ﴾(٧) الآية... وقال سفيان: قال ابن مسعود: «ما من شيءٍ أفضلُ من لسانٍ صادق، وهو قول لا إله إلا الله»(٨).

---

(١) حلية الأولياء ٧/٢٩١.
(٢) السجدة: ١٦.
(٣) الحجر: ٨٧.
(٤) طه: ١٣١.
(٥) هكذا وردت: أشرّ.
(٦) الكهف: ٥.
(٧) مريم: ٩٠.
(٨) حلية الأولياء ٧/٣٠١.

وقال ابن النديم: وربما كان يسمع منه له تفسير معروف[1].

قراءة سفيان:

كان سفيان ممن قرأ بقراءة ابن كثير[2]، ورواها وروى سفيان عن ابن كثير قوله: «ما دَوَّن العلمَ تدْويني أحدٌ».

قراءة حمزة:

كان سفيان رحمه الله يقول: «لو صلّيتُ خلفَ من يقرأ بقراءة حمزة لأعدت». وثبت مثل هذا عن ابن مهدي، وعن حماد بن زيد نحوه[3].

وكان الإمام أحمد أيضاً ممن يكره أن يقرأ بقراءة حمزة.

ويقول ابن قتيبة في معرضِ اختلاف القراءات وكتابة المصحف: «ثم خلف قوم بعد قومٍ من أهلِ الأمصار وأبناء العجم ليس لهم طبع اللغة، ولا علم التكلّف فهفُوا في كثير من الحروف وزلُّوا، وقرأوا بالشاذّ وأخلُّوا، منهم رجل سترَ الله عليه عند العوامّ بالصلاح وقرَّبه من القلوب بالدين، لم أرَ فيمن تتبّعت وجوه قراءةٍ أكثرَ تخليطاً ولا أشدّ اضْطراباً منه، لأنه يستعمل في الحرف ما يدعُه في نظيره، ثم يؤصِّل أصلاً، ويخالف إلى غيره لغيرمَا عِلّةٍ، ويختار في كثير من الحروف ما لا يخرج له إلا على طلب الحيلة الضعيفة، هذا إلى نبذه في قراءته مذاهب العرب وأهل الحجاز

---

(١) الفهرست لابن النديم ٣١٦.

(٢) الحجة ٥٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٧٣.

بإفراطه في المدّ والهمز والإشباع وإفحاشه في الإضجاح[1] والإدغام، وحمله المتعلمين على المركب الصعب وتعسيره على الأمة ما يسّره الله، وتضييقه ما فسحه.

ومن العجب أن يُقرىء الناس بهذه المذاهب، ويكره الصلاة بها، ففي أيٍّ موضع تُستعمل هذه القراءة إن كانت الصلاة لا تجوز بها؟!

وكان ابن عيينة يرى لمن قرأ في صلاته بحرفه أو ائتمَّ بإمام يقرأ بقراءته أن يعيد، ووافقه على ذلك كثير من خيار المسلمين منهم بشر بن الحارث، وأحمد بن حنبل، وقد شغف بقراءته عوامّ الناس وسُوَقهم، وليسٍ ذلك إلا لما يرويه من مشقتها وصعوبتها، وطول اختلاف المتعلِّم إلى المقرىء فيها، فإذا رأَوْه قد اختلف في أم الكتاب عشراً، وفي مئة آية شهراً، وفي السبع الطوال حولاً، ورأَوه عند قراءته مائل الشدقين، دارَّ الوَرِيدين، راشح الجبينين، توهّموا أن ذلك لفضيلة في القراءة وحِذْق بها، وليس هكذا كانت قراءة رسول الله ﷺ ولا خيار السَّلَف، ولا التابعين، ولا القرّاء العالمين، بل كانت قراءتهم سهلةً رَسْلَة وهكذا نختار لقراء القرآن في أورادهم ومحاريبهم[2]. . إلخ.

ويقول أبو بكر بن عيّاش: «قراءة حمزة بدعة».

قال الذهبي: قلت: مُرادُهم بذلك من قبيل الأداء كالسَّكْت والإضجاع في نحو شاء وجاء وتغيير الهمزة، لا ما في قراءته من

---

(١) الإضجاع: الإمالة.

(٢) تأويل مشكل القرآن ٤١ ـ ٤٢.

الحروف، هذا الذي يظهر لي، فإن الرجلَ حجّةٌ ثقةٌ فيما ينقل(١).

وترجمه الذهبي في كتابه: «معرفة القرّاء الكبار»(٢) قال: حمزة بن حبيب بن عِمارة بن إسماعيل أبو عِمارة الكوفي، مولى آلِ عكرمة بن ربعي التيمي الزيّات، أحد القراء السبعة.. إلى أن قال: قرأ عليه الكسائي وسليم بن عيسى وهو أجلّ أصحابه.

وقال: وكان إماماً حجّةً، قيِّماً بكتاب الله تعالى حافظاً للحديث بصيراً بالفرائض والعربية، عابداً، خاشعاً، قانتاً لله، ثخين الورع، عديم النظير(٢).

ويقول ابن الجزري بعد ترجمته: قال ابن مجاهد: قال محمد بن الهيثم: والسبب في ذلك ـ أي إعراض بعض كبار العلماء والقرّاء عن قراءته ـ أن رجلاً ممن قرأ على سَليم ـ وهذا تلميذُ حمزة ـ حضر مجلس ابن إدريس، فقرأ، فسمع ابنُ إدريس ألفاظاً فيها إفراط في المدِّ والهَمز، وغيرِ ذلك من التكلُّف، فكره ذلك ابنُ إدريس وطعَن فيه. قال محمد بن الهيثم: وقد كان حمزة يكره ذلك، وينهى عنه(٣).

كان بارعاً بتفسير الحديث:

وأما تفسير حديث رسول الله ﷺ فقد قال الإمام الشافعي ـ وهو من أعرف الناس بسفيان ـ «ما رأيت أحداً أحسن لتفسير الحديث منه»(٤) يعني سفيان وهو معروف في ذلك عند الكثير من العلماء.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٧٣.

(٢) معرفة القراء الكبار ١/١١١.

(٣) انظر الإمام أحمد بن حنبل للمؤلف رقم ٩٦.

(٤) الجرح والتعديل ١/٣٣.

وكان يرى أحياناً أن عدم تفسير الحديث أبلغ من شرحه، وهذا يدل على أن له ذَوْقاً في العربية، كان يقول: «من فسَّر حديث «من غَشَّنا فليس منا» على أن المرادَ ليس هو على هَدْينا وحُسن طريقتنا فقد أساء الأدب، فإن السكوت عن تفسيره أبلغُ في الزجر»[1].

وذلك أن كلمتَيْ «ليس مِنا» فيهما من الإيحاء شيء كثير، وسماع هذا الحديث يُغني عن شرحه، وزيادة الشرح تذهب ببهاء النصّ، وتقيِّده بالشرح. ويرى من سمع منه: أنهم لم يَرَوا محدثاً قطُّ صاحبَ آثار كان أجود حذفاً وأحسن اختصاراً للحديث من سفيان بن عيينة، سألوه مرة عن قول طاوس في ذكاة الجراد؟ فقال: ذكاته صَيْده[2].

فقهه واجتهاده:

كل محدِّث فقيه بل مجتهد إذا كان مُدْركاً ما يحفظ، وعميق الفكرة فيه خصوصاً إذا جمع إلى ذلك فهمَ كتاب الله، بل كتاب الله هو الأصل، والحديث النبوي للتبيين والشرح، وقد جمع ذلك كلَّه الإمام سفيان بن عيينة، ولكنه لم يُعْنَ بالفقه والاجتهاد عنايةَ الإمام مالك فيهما فقد ألّف مالك في ذلك وأفتى وقُصد من بلاد كثيرة للفتوى، وأما سفيان فقد كان فيه آلةُ الفتوى كاملة لكنّه كان يكفّ عنها ورعاً. قال حَرْملة: سمعت الشافعي يقول: «ما رأيت أحداً فيه من آلة العلم ما في سفيان بن عيينة، وما رأيت أكفَّ عن الفتيا منه»[3].

---

(١) طبقات الشعراني ١/٥٦.

(٢) البيان والتبيين ١/١٧٥.

(٣) مناقب الشافعي للبيهقي ١/٥٢١.

وقال ابن النديم: سفيان بن عيينة الهلالي مولىً، وكان فقيهاً مجوداً ولا كتاب له يعرف[1].

لا أدري:

هذه الكلمة لا يقولها إلا عالم جليل شجاع، لأنه لا يخشى أن يُتّهم بالتقصير، ولكنه يخشى الله أن يقول في شيء من العلم والدّين ما لا يعلم، وهي كلمة إذا قالها عالم ارتفع شأنه عند الله وعند الناس، وإذا قالها جاهل كانت مبدأً للعلم. فقد كان يُقال قديماً «أوّلُ العلم أن تعلمَ أنك لا تعلم شيئاً».

أما الجهّال المتعالمون فيُشعرون غيرَهم أنهم يعلمون كل شيء، وقد يكون مصدرُ علمهم قراءةَ كتيب صغير أو قراءة مجلة، أو أمثال ذلك. وقد قال ابنُ عباس رضي الله عنهما: «إذا ترك العالم: لا أدري، أُصيبت مقاتله»[2]، فكأنّ «لا أدري» جُنَّةٌ تحفظه من الذلّ والزلل أما من يتكلم فيما يعلم وفيما لا يعلم فهذا الذي تصاب مقاتله المعنوية إذا امتحن إزاء من يعلم فيكون أُمثولةَ الخزي والسخرية.

وقال عمر بن عبد العزيز: «من قال لا أدري فقد أحْرَز نصف العلم»[3]. وكان سفيان بن عُيَينة إذا سُئل عن شيء يقول: لا أحسن، فيُقال له: من نسأل؟ فيقول: «سلِ العلماء، وسل الله التوفيق»[4].

---

(١) الفهرست ٣١٦.

(٢ و ٣) البيان والتبيين ١/٣٩٨.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٨.

عَقيدَة سُفيَان

الإيمان يزيد وينقص:

هناك من قال من المرجئة وغيرهم: الإيمان لا يزيد ولا ينقص، لأنه عندهم في غاية الجزم. وهذا يجعل إيمان أكثرِ الناس فسقاً كإيمان أبي بكرٍ وعمر. وهذا محالٌ، حتى إن التصديق القلبي الجازم يتفاوت قوةً وضعفاً فالله يقول لإبراهيم عليه السلام أبي الأنبياء: ﴿ أولم تؤمن؟ قال: بلى ولكن ليطمئنّ قلبي ﴾ كأنه جعل إيمانه دون درجة الاطمئنان والاطمئنان أعلى درجات التصديق.

على أنّ الإيمان قد يُطلق على العمل، ومن ذلك الصلاة، قال الله تعالى ﴿ ... وما كان الله لِيُضيع إيمانكم... ﴾[1] أي صلاتكم إلى بيت المقدس.

ومن هذا قال علماء السلف: الإيمانُ قولٌ وعملٌ يزيد وينقص. ويقول ابن حزم[2]: «وذهب سائر الفقهاء، وأصحاب الحديث، والمعتزلة، والشيعة، وجميع الخوارج إلى أن الإيمان: هو المعرفة بالقلب بالدين، والإقْرار به باللسان، والعمل بالجوارح، وأن كلَّ

---

(١) البقرة: ١٤٣.

(٢) الفِصَل ٣/١٨٨.

طاعة وعملِ خيرٍ فرضاً كان أو نافلة فهي إيمان، وكلّما ازداد خيراً ازداد إيمانه، وكلما عصَى نقص من إيمانه».

قال الله تعالى: ﴿ إنما المؤمنون الذين إذا ذُكِر اللهُ وَجِلت قلوبُهم، وإذا تُليتْ عليهم آياتـه زَادتْهم إيمـانـاً وعلى ربِّهم يتوكلون ﴾[(١)]، وقال تعالى: ﴿ وإذا ما أُنزلت سورةٌ فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً، فأما الذين آمنوا فَزادَتْهم إيماناً وهم يستبشرون ﴾[(٢)]، وقال تعالى: ﴿ هو الذي أَنزل السكينةَ في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ﴾[(٣)].

عن عمرو بن عثمان الرقي قال: كنت عند سفيان بن عيينة، فجاءه رجل فقال: يا أبا محمد ما تقول: الإيمان يزيد وينقص؟ قال: «يزيد ما شاء الله وينقص حتى لا يبقى معك منه شيء»، وعقدَ بثلاثة أصابعَ وحَلَّق بالإبهام والسَّبَّابَة[(٤)]... إلـخ. ويقول سفيان رحمه الله: «الإيمان قولٌ وعمل، فقيل له: يزيد وينقص؟ قال: نعم ينقص حتى لا يبقى مثلُ هذا، ورفع شيئاً من الأرض»[(٥)] وقرأ ﴿ وزِدْناهم إيماناً ﴾.

رؤية الله في الآخرة:

يرى أهل السنّة أن الله تعالى يُرى في الآخرة، وشذَّ عن هذا القول المعتزلة، وأدلة رؤيته تبارك وتعالى واضحة قـوية، قـال

---

(١) الأنفال: ٢.

(٢) التوبة: ١٢٤.

(٣) الفتح: ٤.

(٤) حلية الأولياء ٧/٢٩٥.

(٥) حلية الأولياء ٧/٢٩٠ وسير أعلام النبلاء ٨/٤٦٨.

الله تعالى: ﴿ وجوهٌ يومئذ ناضرة * إلى ربها ناظرة ﴾[١].

ولا يَرِد عليها قوله تعالى: ﴿ لا تُدركُه الأبصارُ وهو يُدرك الأبصار ﴾[٢]، وهو حجّة المعتزلة، لأن الإدراك يختلف عن النظر، والإدراك يتعلق بالماهية والجوهر، وتعالى الله أن تُدرك ماهيّته. أما قوله تعالى: ﴿ كلّاً إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ﴾[٣] فمن لازِمِه أن يكون المؤمنُ الصادقُ الإيمان غير محجوب عن رؤيته سبحانه وتعالى.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال: «إذا دخل أهلُ الجنة الجنة قال الله تبارك وتعالى: تريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّضْ وجوهَنا؟ ألم تُدخِلْنا الجنة وتنجِّنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فما أُعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربِّهم عزّ وجلّ، ثم تلا ﴿ للذين أحسنوا الحسنى وزيادة ﴾[٤]» رواه مسلم.

حدثنا لُوَين قال: قيل لابن عيينة: هذه الأحاديث التي تُروى في الرؤية؟ قال حق على ما سمعناها ممن نثق به ونرضاه.

وحدّث الحميدي قال: قيل لسفيان بن عيينة: إن بشراً المرِّيسي يقول: إن الله لا يُرى في الآخرة، فقال: قاتل الله الدُّويبّة، ألم تسمع إلى قوله تعالى: ﴿ كلا إنهم عن ربهم يومئذٍ لمحجوبون ﴾[٣] فإذا احتجب عن الأولياء والأعداء، فأي فضلٍ للأولياء على الأعداء[٥].

(١) القيامة: ٢٢ و٢٣.
(٢) الأنعام: ١٠٣.
(٣) المطففين: ١٥.
(٤) يونس: ٢٦.
(٥) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٨.

القرآن كلام الله:

الكلام في هذه العقيدة أثارها المعتزلة، فمن مذهبهم إنكارُ الصفات، ومن هذه الصفات كونُه متكلِّماً، وعندهم على هذا أنّ الله تعالى لم يكلّم موسى، بل خلق الكلام في شجرة وسمعه موسى، وكذلك القرآن خلقه الله وليس هو كلاماً له. وهذا كلامٌ ردَّه أهلُ السنّة، وهو مجانب للحقِّ، فأمَّا كلامه إلى موسى فقد قال تعالى: ﴿ وكلّم الله موسى تكليماً ﴾[1] فقوله: تكليماً: مصدر مؤكّد، والتأكيد يرفع المجاز، فلا يبقى إلا الحقيقة.

وقال تعالى: ﴿ تلك الرسل فضَّلْنا بعضَهم على بعض منهم من كَلَّمُ الله... ﴾[2]، وقال تعالى: ﴿ وقد كان فريق يسمعون كلام الله... ﴾[3]، وقال: ﴿وإنْ أحدٌ من المشركين استجارك فأجِره حتى يسمع كلام الله ﴾[4]. فخاطبنا الله بما نفهم، والأصل الحقيقة ولا يُعدل عنها إلا بقرينة، ولا قرينة في كلام، ولو شاء لقال: ومنهم خُلق له كلام الله، ولكنه في هذه الآيات وآياتٍ كثيرة نسَبَ الكلامَ إلى نفسه حقيقةً، وقد ذمّ الله تعالى على لسان إبراهيم الآلهة بأنها لا تنطق بقوله: ﴿ فعلَه كبيرُهم هذا فاسْألوهم إنْ كانوا ينطقون ﴾[5]، وُصفت الأصنام بأنها لا تنطق لأنها جماد فما المزيّة لله تعالى إذا كان لا ينطق ولا يتكلم، تعالى الله عن ذلك.

---

(١) النساء: ١٦٣.
(٢) البقرة: ٢٥٣.
(٣) البقرة: ٧٥.
(٤) التوبة: ٦.
(٥) الأنبياء: ٦٣.

عن أبي بكر عبد الرحمٰن بن عفان قال: سمعت ابن عيينة في السنة التي أخذوا فيها بِشراً المريسي بمِنيً، فقام سفيان مُغْضَباً فقال: «لقد تكلموا في القدَر والاعتزال، وأُمِرْنا أن نجتنب القوم، رأينا علماءنا: هذا عمرُو بن دينار، وهذا محمدُ بن المنكَدِر، حتى ذكر أيوبَ بنَ موسى والأعمشَ ومِسْعَراً، وما يعرفونه إلاَّ كلامَ الله، ولا نعرفه إلا كلامَ الله، فمن قال غير ذا فعليه لعنةُ الله مرَّتين، فما أشبَه هذا بكلام النصارى، فلا تجالسوهم»[(١)].

قال الحافظ ابن أبي حاتم: حدثنا محمد بن الفضل بن موسى، ثنا محمد بن منصور الجواز قال: رأيت سفيان بن عيينة، سأله رجل: «ما تقول في القرآن؟ قال: كلامُ الله، منه خرج وإليه يعود»[(٢)].

مَذهبه في المتشابه من الآيات أو الأحاديث:

مذهبه في ذلك مذهبُ السلَف لا يُعطِّلون ولا يُؤَوِّلون، بل يَدَعون اللَّفظ على مَوْرِده، ويُمِرُّونه من غير تشبيه أو تمثيل.

قال أحمد بن نصر: سألت ابن عيينة، وجعلتُ أُلِحُّ عليه، فقال: دَعْني أتَنَفَّس، فقلت: كيف حديثُ عبد الله عند النبي ﷺ «إن اللهَ يحملُ السموات على إصْبع»[(٣)] وحديث: «إنَّ قلوبَ العباد بين إصْبعين من أصابع الرحمٰن»[(٤)] وحديث: «إن الله يعجب أو

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٨.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٦.
(٣) أخرجه البخاري ٨/٤٢٣.
(٤) صحيح مسلم رقم (٢٦٥٤) في القدر.

يَضحك ممن يذكُره في الأسواق»[1] قال سفيان: هي كما جاءتْ نقرّ بها، ونحدِّث بها، بلا كيف[2].

فابن عيينة ومن قبله من السلف يؤمنون بما وصفَ الله به نفسَه أو وصفه رسوله ﷺ من غير تأويل بل يُمِرّونها كما جاءت مع قوله تعالى: ﴿ ليس كمثلِه شيءٌ... ﴾[3]، ﴿ ... ولم يكنْ له كُفُواً أحدٌ ﴾[4].

---

(١) أخرجه الترمذي من حديث على رقم ٣٤٤٦. وسنده حسن.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٦ - ٤٦٧.
(٣) الشورى: ١١.
(٤) الإخلاص: ٤.

تلاميذه

كان سفيان بن عيينة محدثاً كبيراً جليلاً، لذلك كان مقصوداً للسماع منه، فكان يؤمُّه المحدثون، بل أكابرُ المحدثين وعلماؤهم، يريدون أن يصلوا حبلهم بحبله وسندَهم بسندِه، وكان مشهوراً بعلوّ السند. والمحدِّث الحاذق لو لم يستطع أن يصل إلى السند العالي إلا أن يركب له كل صعب لفعل، وهذا أمر لا يعرفه إلّا من عاناه، وإلّا من عرف قدرَه وقيمَته، وما يطلبون إلا ليكونَ أقربَ إلى الصحة، فالوصول بالحديث إلى رسول الله ﷺ برجلين خيرٌ من ثلاثة، وبالثلاثة خيرٌ من أربعة، ولئن أُتيح له أن يسمع من شيخ شيخِه خيْر له من أن يسمعَ من شيخه، وهكذا.

وليس بين سفيان وبين النبي ﷺ إلا رجلان فقط التابعي والصحابي، عمرُو بنُ دينار، وابن عمر مثلاً، وأيضاً ما بين ابن عيينة إلا الزهري وأنس بن مالك، وهكذا الكثير مما رواه سفيان، فقد روى عن ثمانين تابعياً ونيّف. ولذلك أقبل عليه أولو هذا الشأنِ وازْدحموا على درسه بل خلعوا باب بيته ليدخلوا عليه ويسمعوا منه، رغب أم لم يرغب، ضَجِر أم لم يضجر، ضاق بهم أم لم يضق. وقد تقدّم بعض ذلك.

ولقد كانَ خَلْقٌ من طلبة الحديث يتكلّفون الحج، وما المحرِّك إليهم سوى لُقيا سفيانَ بنِ عيينة لإمامته وعلوٍّ إسناده[1].

بل جاور عنده غيرُ واحد من الحفّاظ[2]:

وفي «وَفيات الأعيان»: أن سفيانَ خرج يوماً إلى من جاءه يسمع منه ـ وهو ضَجِر ـ فقال: أليس من الشقاء أن أكونَ جالستُ ضمرَةَ بن سعيد، وجالسَ هو أبا سعيد الخُدْري؟ وجالستُ عمروَ بن دينار، وجالس هو ابن عُمر؟ وجالست الزهري، وجالس هو أنسَ بن مالك؟ حتى عدَّ جماعة، ثم أنا أجالسكم؟ فقال له حَدَث في المجلس، أتُنصف يا أبا محمد؟ قال: إن شاء الله تعالى، فقال: والله، لشقاءُ أصحاب رسول الله ﷺ بكَ أشدُّ من شقائك بنا، فأطرق ـ أي سفيان ـ وأنشد قول أبي نواس:

خلِّ جنبيكَ لِرَامْ ... وامْضِ عني بسَلامْ
مُتْ بداءِ الصَّمتِ خيْـ ... ـرٌ لَكَ من داءِ الكلامْ
إنما السالمُ من ألْـ ... ـجَم فاه بِلِجامْ

فتفرّق الناس وهم يتحدثون برجاحةِ الحدَث، وكان هذا الحدَث هو يحيى بن أكثم فقال سفيان: هذا الغلام يصلُح لصُحبةِ هؤلاء ـ يعني السلطان[3] ـ.

(١ و ٢) سير أعلام النبلاء ٤٥٧/٨.

(٣) وفيات الأعيان ٣٩٢/٢.

وقد كان يحيى بنُ سعيد الأموي يقول: رَأيت مِسْعَراً يشفعُ لإنسانٍ إلى سُفيان بن عيينة يحدثه[1].

من روى عنه من شيوخه:

روى عنه من شيوخه: الأعمشُ، وابنُ جُرَيج، وشُعبة، والثَّوري، ومِسعَر.

من روى عنه من أقرانه:

روى عنه من أقرانه: أبو إسحاق الفَزاري، وزهيرُ بنُ معاوية، وحماد بن زيد، والحسن بن حي[2]، وهمام بن يحيىٰ، وأبو الأحوص، وابنُ المبارك، وقيسُ بن الربيع، وأبو معاوية، ووكيع، ومعتمِرُ بن سُليمان، وعبد الرحمٰن بن مهدي، ويحيىٰ بن زائدة، فهؤلاء من أقرانه وماتوا قبله.

ولا بدّ أن نتحدث عن شيوخه وأقرانه باختصار:

من كبار أصحابه المكثرين عنه:

وهم: الحُمَيْدي، والشافعيّ، وابن المديني، وأحمد بن حنبل، وإبراهيم بن بشار الرمادي.

أصحابه الراوون عنه:

ومن أصحابه الراوون عنه[3]: إبراهيم بن سَعْد، عبد الله بنُ وهب، ويحيىٰ القطان، وابن مَهدي، وأبو أسامة، ورَوح بن عُبادة،

---

(١) الجرح والتعديل ١/٥٠.

(٢) وهو الحسن بن صالح بن صالح بن حي.

(٣) جمعنا بعض من أخذ عنه الحديث من كتابين: «تهذيب التهذيب»، و «سير أعلام النبلاء».

والفِرْيابي، وأبـو الوليـد الطيـالسي، وعبد الـرزاق، وأبـو نعيم، ويحيـىٰ بن معين، وإسحاق بن رَاهُويَه، وعمرو بن علي الفَلاَّس، وابْنا أبي شيبة، وأبو خَيثمة، وأحمدُ بن صالح المصري، وأحمدُ بن مَنيع، وأبو تَوبة الحَلبي، وأبو جعفر النُّفيْلي، وأبو بكر الحُميدي، ومحمد بن يحيـىٰ بن أبي عمر العدني، وعلي بن حرب، وعلي بن خَشرم، وقُتيبة، وأبو موسى العَنْزِي، وهارون الحمَّال، وأحمد بن شَيبان الرَّملي، والحسنُ بن محمد الزعفراني، والزُّبير بن بَكَّار، ومحمدُ بن عيسى بن حِبَّان، ومحمدُ بن عاصم الأصبهاني، وهو الثقفي، وسعيد بن منصور، وأبو بكر بن أبي شيبـة، ومحمد بن عبد الله بن نُمير، وأبو كريب ومحمد بن المثنّى، وعمرو بن محمد الناقد، وإسحاق بن مَنْصور الكوسَج، وزهيرُ بن حرب، ويونس بـن عبد الأعلى، والحسنُ بن الصباح البزار، وعبدُ الرحمٰن بن بشر بن الحكم، وسعدان بن نصر، وزكريا بن يحيـىٰ المروزي، وبشر بن مَطر، وأُممٌ سِواهم خاتَمهم في الدنيا شيخٌ مكي يقال له: أبو نصر اليسع بن زيد الزينبي. عاش إلى اثنتين وثمـانين ومئتين، وما هو بالقوي.

١ ـ ترجمة من أخذَ عنه من شيوخه:

أوّل هؤلاء الأعمش، وهو سليمانُ بن مِهران، شيخُ الإسلام، شيخ المقرئين والمحدِّثين، أبو محمد الأسَدِي، الكاهِلِي مَولاهم، الكوفي الحافظ، رأى أنسَ بنَ مالك ورَوى عنه وعن عبد الله بن أبي أوفى، على معنى التَّدليس ـ أي بلفظ عن، أو قال ـ لا بلفظ سمعت، وكان الأعمش مع إمامته مُدَلِّساً.

شيوخ الأعمش:

روى عن أبي وائل، وزيد بن وَهب، وأبي عمرو الشيباني، وإبراهيم النَخَعي، وسعيدِ بن جبير، وأبي صالح السمّان، ومجاهد، وخيْثَمة بن عبد الرحمٰن، وعبدِ الرحمٰن بن أبي ليلى، وكميلِ بن زياد، والوليدِ بن عُبادة بن الصامت، وقيسِ بن أبي حازم، وأبي حازم الأشجعي، والشعبي، وخلق كثير من كبار التابعين.

من سمعَ منه:

وروى عنه الكثير، انظرهم في «تهذيب التهذيب» أو في «سير أعلام النبلاء».

الثناء عليه:

قال يحيىٰ القطان: هو علاّمةُ الإسلام.

وقال وكيعُ بن الجرّاح: كان الأعمشُ قريباً من سبعين سنة لَم تَفُتْه التكبيرة الأولى.

وقال عبد الله الخريبي: ما خلَّف الأعَمَشُ أعبدَ منه.

وقال ابنُ عيينة: لو رأيتَ الأعمش وعليه فرْوٌ غَلِيظ وخُفَّان غليظان كأنه إنسان سائل، فقال يوماً: لولا القرآن وهذا العلمُ عندي لكنت من بقّالي الكوفة.

وقال هشيم: ما رأيتُ بالكوفة أحداً أقرَأ لكتاب الله ولا أجودَ حديثاً من الأعمش ولا أفهم، ولا أسرعَ إجابةً لما يُسأل عنه.

توثيقـه:

عن ابن معين: الأعمش ثقةٌ. وقال النسائي: ثقةٌ ثبتٌ.

وفاتـه:

قـال أبـو عَـوَانـة وعبـد الله بن دَاود: مـات الأعمش سنـة سبع وأربعين ومئة، وقـال وكيع والجمهـور: سنة ثمـان.. زاد أبـو نُعيم: في ربيعٍ الأولِ وهــو ابنُ ثمـانٍ وثمـانين سنـة ـ رحمه الله تعالى ـ.

٢ ـ الثاني ممن روى عنه من شيوخه:

عبد الملك بن جُرَيج:

عبـد الملك بن عبد العـزيز بن جُـريج، الإمَـام، العلاَّمـة، الحافظُ، شيخُ الحرم، أبو خالدٍ، وأبو الوليـد القُرشي الأمـوي: مولاهم المكّي، صاحبُ التصانيف وقيل: كان جده جُريج عبداً لأم حبيب بنتِ جبير زوجة عبد العزيز بن عبد الله بن خالد بن أسيد الأموي، فنُسب ولاؤه إليه وهو عبدٌ رومي.

أخوه وابنه:

وكان لابنِ جُريج أخٌ اسمهُ محمد، لا يكادُ يُعرف، وله ابنٌ اسمه محمد أيضاً.

شيوخـه:

حدّث عن عطاء بنِ أبي رباح واختلَفَ إليه ثمانيَ عشرة سنة، وعن ابنِ أبي مليكة ونافع مولى ابن عمـر، وأخذ عن مجـاهد القـارىء المشهور حـرفين من القِراءات. وميمـون بن مِهـران، وعمرو بن شعيب، وعمرو بن دينار ـ اجتمع هو وابن عيينة عليه ـ

وعكرمة بن خالد، وابن المنكدر، وعبد الله بن طاوس، وخلق كثير[1].

أول من صنّف الكتب:

لم تكن الأحاديث تُكتب بل كانت تُحفظ، وقد منع رسول الله ﷺ كتابة كلامِه خشية أن يلتبس بالقرآن، ولما جاء عمر رضي الله عنه كاد يأمر بكتابة حديث رسول الله، ولكنه خشي أن يترك الناسُ كتابَ الله إلى حديث رسول الله فمنع، فلما انتقل رسول الله ﷺ وانقطع الوحي بدأ بعضُ الحفّاظ يكتبون، واختلف الناس فيمن بدأ بالكتابة فقال بعضهم: ابن جريج، وابن أبي عروبة. قال عبد الله بن أحمد: قلت لأبي: من أول من صنف الكتب؟ قال: ابن جريج، وابن أبي عروبة.

وقال ابن عيينة: سمعت ابن جريج يقول: ما دَوَّن العلم تدويني أحدٌ.

توثيقه:

قال الإمام أحمد: عمرو بن دينار وابنِ جريج أثبت الناس في عَطاء. وقال علي ـ ابن المديني ـ: سألتُ يحيىٰ بن سعيد: من أثبت من أصحاب نافع؟ قال: أيوب، وعبيد الله، ومالك، وابن جريج أثبت من مالك في نافع. وعن يحيىٰ بن معين: ابن جريج ثقة في كل ما روى عنه من الكتاب. وقال أحمد بن حنبل: إذا قال ابن جريج، قال فلان وقال فلان، وأُخبرْتُ، جاء بمناكير؛ وإذا قال: أخبرني، وسمعت، فحسبُك به.

(١) انظر تفصيلهم في «سير أعلام النبلاء»، وفي «تهذيب التهذيب».

وكان الشافعيُّ بصيراً بعلم ابن جريج، عالماً بدقائِقه، وبعِلم سفيان بن عيينة.

وقد كان ابن جريج شيخ الحرم.

مولده ووفاته:

وُلد سنة ثمانين وتوفي سنة خمسين ومائة. وعاش سبعين سنة، فسنُّه وسن أبي حنيفة واحد ومولدهما وموتهما واحد.

٣ ـ الثالث ممن أخذ عنه من شيوخه:

شعبة بن الحجاج بن الورد، الإمامُ الحافظ، أمير المؤمنين في الحديث أبو بِسطام الأزدي العتكي، مَولاهم الواسِطي، عالم أهلِ البصرة وشيخها، سكن البصرة من الصغر، ورأى الحسن، وأخذَ عنه مسائل.

شيوخه:

حدَّث عن كثيرين منهم أنس بن سيرين، وإسماعيلُ بن رَجاء، وجامع بن شَدَّاد، وسعيد المقبري، والحكمُ بن عتبة، وعمرُو بن مُـرَّة، وقَتادةُ بن دِعـامة، ومُعـاوية بن قـرّة، وعمـرُو بن دينـار، ويحيى بنُ أبي كثيـر، وعبيـد بن الحسن، وعـدي بن ثـابت، وسعيد بن أبي بردة، وأيّوب السختياني، وسِماك بن الوليد، وخلق كثير سواهم، بل سمع من أربع مئة شيخ من التابعين، وحدث عنه من شيوخه كثير، كان من أوعيةِ العلم، لا يتقدمه أحد في الحديث في زمانه وهو من نُظراء الأَوْزاعي ومعمَر، والثوري، في الكثرة.

مولـده:

وُلـد سنـة ثمـانين، وقـال أبـو زيـد الهـروي: وُلـد سنـة اثنتين وثمانين.

من حدّث عنه:

حدّث عنه الكثير الكثير انظرهم في «سيَر أعـلام النبلاء»: ٧/ ٢٠٤.

ومن جلالته أنه قد روى مالك الإمام عن رجل عنه، وهذا قَلَّ أن عَمِله مالكٌ.

توثيقه والثناء عليه:

قال الإمام أحمـد بن حنبل: شعبـة أثبت من الأعمش في الحكم، وشعبة أحسنُ حديثاً من الثوري، وكان شعبة أمّةً وحدَه في هذا الشأن. وقال أبو عبد الله الحاكم: شعبـةُ إمام الأئمـةِ بالبصرة في معرفته بالحديث. وقال حمَّاد بن زيد: إذا خالفني شعبةُ في الحديث، صِرتُ إليه. وقال يحيـىٰ بن سعيد: ما رأيتُ أحداً قطُّ أحسَن حديثاً من شُعبة. وقال أبو داود الطيالسي: سمعت من شعبة سبعة آلاف حديث، وسمع منه غُنْدَر سبعة آلاف.

يقول الذهبي: قلت: يعني بالآثار والمقاطيع.

قال سفيان الثوري: شعبة: أميرُ المؤمنين في الحديث. وكان شديدَ الكراهة للتدليس والمُدَلّسين، وكان يقول: «لأَن أزني أحبُّ إليَّ من أن أُدَلِّس».

وقال يحيىٰ بن سعيد: لا يعدِل شعبة عندي أحدٌ. وروى هشيم عن شعبة، قال: خُذوا عن أهلِ الشَّرف فإنهم لا يكذبون.

وفاته:

توفي شعبة رحمه الله في سنة خمس وستين ومئة عن خمس وسبعين.

٤ ـ الرابع ممن أخذ عنه من شيوخه:

الزهري وقد تقدّم الكلام عليه.

٥ ـ الخامس ممن أخذ عنه من شيوخه:

مِسْعَر بن كِدَام بن ظُهَير بن عُبَيْدة بن الحارث، الإمام الثبت، شيخ العراق، أبو سلمة الهلالي الكوفي، الأحول، الحافظ، من أسنان شعبة.

روى عن عديٍّ بن ثابت، وعمرو بن مُرّة، والحكِم بن عتبة، وقتادةَ بـنِ دِعامة، وزيادِ بن علاقة، وسعيدِ بن أبي بُردة، وقيسِ بن مسلم، وأبي إسحاق السَّبيعي، وحبيب بن أبي ثابت، ومحارِب بن دِثار، وغيرِهم كثير.

روى عنه سفيانُ بن عيينة، ويحيىٰ القَطّان، ووكيع، ويزيدُ بن هارون، وابنُ المبارك، ومحمد بن بشر، وخلق سواهم.

الثناء على مسعر وتوثيقه:

قال يحيىٰ بن سعيد: ما رأيتُ أحداً أثبتَ من مِسعَرٍ. وقال أحمد بن حنبل: الثقةُ كشعبة ومِسعر. وقال وكيع: شكُّ مسعرٍ كيقين غيرِه.

وقال الحسن بن عُمارة: إن لم يدخل الجنة إلا مثلُ مِسعر، إن أهل الجنة لقليل.

قيل لسفيان بن عيينة: مَن أفضل من رأيت؟ قال: مِسعر. وعن يعلى بن عبيد قال: كان مسعر قد جمع العلم والـوَرَع. وقال يحيـىٰ بن سعيد القطان: ما رأيت مثلَ مِسعر؛ كان من أثبت الناس وقال سفيان الثوري: كنا إذا اختلفنا في شيء أتينا مسعراً. قال ابن عمار: حجة، مَنْ بالكوفة مثلُه؟!

وقال ابن المبارك في الثناء على مجلس مسعر بن كدام:

من كان ملتمساً جليساً صالحاً فليأتِ حَلْقَةَ مِسْعَـر بن كِدام
فيها السكينة والـوقار وأهلُهـا أهـلُ العفاف وعِلْيـة الأقـوام

وقال أبو حاتم: مِسعرٌ أتقنُ من سُفيان ـ الثوري ـ، وأجودُ حديثاً وأعلى إسناداً وهو أتقن من حمّادِ بنِ زيد. وقال أبو داود: روى مسعر عن مئة لم يرو عنهم سفيان.

توفي رحمه الله في رجب سنة خمس وخمسين ومئة[١].

قال الذهبي: «ومن كبار أصحابه ـ أي تلاميذه ـ المكثرين عنه: الحُميدي، والشافعي، وابنُ المديني، وأحمدُ».

ولا بُدَّ أن نعرِّف بعضهم ونترجمهم باختصار:

---

(١) انظر هذه الخلاصة في ترجمة من أخذ عنه من شيوخه في «تهذيب التهذيب» و «سير أعلام النبلاء».

١ ـ الحُمَيْـدي:

هو عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله بن أسامة، أبو بكر القُرشي، الأسدي، الحميدي المكي، رئيس أصحاب ابنِ عيينة، وأحد كبار أصحاب الشافعي.

حدَّث عن: إبراهيم بن سعد، وفضيل بن عياض، وسفيان بن عيينـة فأكثـر عنه وجَـوَّد، وعبد العـزيز بن عبـد الصمد العَمِّي، وعبد العزيز بن أبي حازم، والوليد بن مسلم، ومروان بن معاوية، ووكيع، والشافعي.

حدّث عنه: البخاري ـ وكان البخاري إذا وجد الحديث عنه لا يحـوجه إلى غيـره من الثقةِ بـه ـ والذهلي، وهـارون الحمَّال، وأحمـد بن الأزهـر، وسلمـةُ بـن شَبيب، ومحمـد بن سنجـر، وأبو زرعة الرازي، ومحمد بن عبد الله البرقي، وأبو حاتم الرازي، وخلق سواهم[١].

توثيقه والثناء عليه:

قال الشافعي: «ما رأيت صاحب بلغُم أحفظ من الحُميدي، كان يحفظ لسفيان بـن عيينة عشرة آلاف حديث». وقال إسحاق بن راهويه: «الأئمة في زماننا: الشافعي، والحميدي، وأبو عبيد». وقـال أبو حـاتم الرازي: «أثبتُ النـاس في سفيـان بـن عيينـة الحميدي». وقال أحمد: «الحُميدي عندنا إمام». وقال يعقوب بن سفيان: «ما رأيت أنصحَ للإسلام وأهلِه من الحميدي». وقـال

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٧.

ابن حبان: «جالس الحميدي سفيان بن عيينة عشرين سنة». وقال الحاكم: «ثقة مأمون».

وكفى للحميدي شرفاً أنه كان رفيقاً للإمام الشافعي في سماع الحديث عن ابن عيينة وكان شيخاً للبخاري في الحديث، وأن البخاري قد تخرّج به في الفقه أيضاً. قال ابن حجر: جزم كلٌّ من ترجم البخاري بأنّ الحميدي من شيوخه في الفقه والحديث.

ومن اطَّلع على المسند للحميدي لا يكاد يجد حديثاً مصدَّراً بغير شيخه ابن عيينة، كأنه ليس له شيخ في الحديث غيره. توفي الحميدي سنة ٢١٩.

٢ ـ الإمام الشافعي:

لكاتب هذا الكلام كتابٌ في حياة الشافعي، فحسبنا أن نذكر هنا ما له علاقةٌ بشيخه الإمام سفيان بن عيينة.

كان سفيان بن عيينة مع جلالة قدره من كبار المحدثين، ومع فضله الكبير بالسنّة حفظاً وشرحاً وعلماً، كان إذا جاءه شيء من التفسير والفتيا يقول: سلُوا هذا الفتى[1]. وذلك أن الشافعي رحمه الله من كبار علماء عصره بأساليب العرب ولغاتهم.

ولقد دخل إسحاق بن راهويه، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن معين، مكة وأرادوا عبد الرزاق ـ صاحب المصنف ـ فدَخلوا مسجد الحرام، فرأَوْا رجلاً على كرسيّ وحولَه الناس، وهو يقول: يا أهل الشام، ويا أهل العراق، سلوني عن سنن رسول الله ﷺ،

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٢٤٠، وطبقات الشيرازي ٧٢.

قلنا لرجل: مَن هذا الجالس؟ فقال: المطّلبي الشافعي، قال إسحاق: فقلت لأحمد بن حنبل: يا أبا عبد الله مُرَّ بنا إليه نجعلُ طريقنا عليه، قال: فلما قمنا عليه قلنا: يا أبا عبد الله، سَلْه عن حديث النبي ﷺ «أمْكِنوا الطيرَ في أوكارها»، فقال: وما تصنع بهذا؟ هذا مُفَسَّر: دعوا الطير في ظلمة الليل في أوكارها، فقال إسحاق: والله لأَسألَنَّه: يا مُطَّلبي، ما تفسير قول النبي ﷺ «أمْكِنوا الطير في أوكارها»[(1)]؟ قال: نعم يا فارسي، هذا أحمد بن حنبل ـ وهو عربي ـ بلغني أنه يُفتي بالعراق في هذا الحديث: دَعُوا الطير في ظلمة الليل في أوكارها، قال إسحاق: يا مطلبي، ما تفسير هذا الحديث؟ قال: نعم، حدثنا بهذا الحديث سفيانُ بن عيينة، فسألته عن تفسيره فقال: لا أدري، فقلت: بارك الله عليك يا أبا محمد، فأخذ بيدي وقال لي: يا شافعي، ما تفسير هذا الحديث؟ فقلت: كان أهل الجاهلية إذا أرادوا سفراً عمَدوا إلى الطير فسرَّحوها، فإن أخذت يميناً خرجوا في ذلك الفأل، وإن أخذتْ يساراً، أو رجعت خلفها تطيَّرُوا ورَجعوا، فلما أن بُعث النبيٍ ﷺ، قدِم مكة فنادى في الناس: «أمكنوا الطيور في أوكارها، وبكّروا على اسم الله».

قال إسحاق لأحمد: يا أبا عبد الله، لو لم نرحل من العراق إلى الحجاز إلَّا في تفسير هذا الحديث لكانت لنا غنيمة، قال أحمد: ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾[(2)].

فكان سفيان إذا سئل عن معنى هذا الحديث يفسِّره على نحو ما

---

(1) الحديث أخرجه أبو داود رقم ٢٨٣٥.

(2) مناقب الشافعي للبيهقي ١/٣٠٧ ـ ٣٠٨.

قال الشافعي. قال ابن مهاجر: فسألت عنه وكيع بن الجراح، فقال: إنما هو عندنا على صيد الليل فذكرت له قول الشافعي فاستحسنه.

وفي مجلس من مجالس سفيان بن عيينة والشافعيُّ حاضر، حدَّث ابن عيينة عن الزهري عن علي بن الحسين: «أن النبي ﷺ مَرَّ به رجلٌ وهو مع امْرأته صفيّة، فقال: تعالَ هذه امرأتي صفية فقال: سبحان الله يا رسول الله، فقال: إن الشيْطان يَجري من الإنسان مَجرى الدم»[1].

فقال ابن عيينة: ما فقه هذا الحديث يا أبا عبد الله؟

فقال: إنْ كان القومُ اتَّهموا النبي ﷺ كانوا بتُهمتهم إيَّاه كُفّاراً، لكن النبيَّ ﷺ أدَّبَ من بعده فقال: إذا كنتم هكذا فافعلوا هكذا، حتى لا يُظَن بكم ظنَّ السوء، لا أنَّ النبي ﷺ - وهو أمين الله في أرضه - اتُّهِم.

فقال ابن عيينة: جزاك الله خيراً يا أبا عبدالله، فما يجيئنا منك إلّا كُلُّ ما نحبّه[2].

وهناك أشياء من هذا القبيل يصحح فيه الشافعي ما فهمه غيره على غير الصواب، ونكتفي بما أوردنا.

وكان الشافعيُّ يتأدَّب مع شيخه سفيان ويمتثل أمْره، كان سفيان يكرَه من كلِّ أحد أن يسلِّم عليه وهو يُلْقي حديث رسول الله ﷺ

---

(١) صحيح مسلم رقم ٢١٧٥.

(٢) آداب الشافعي ومناقبه ٦٨ - ٧٠، ومناقب الشافعي للبيهقي ١/ ٣١٠.

أو يسمعه أو يقول له: كيف أصبحت؟ لأن في هذا وضعَ الشيء في غير مكانه. يقول الشافعي: كنت آتي سفيانَ بنَ عيينة فلا أسلّم عليه، حتى يكون هو الذي يبدؤني، فيَلْتفت إليَّ فيقول: كيف أصبحتَ أصلحكَ الله! وذلك أنه إذا بدأه إنسان بالسلام رد عليه بضيق: كيف أصبحت!! كيف أصبحت!![1].

ويقول الشافعي: ثم لقيتُ سفيان بن عيينة فسلّمت عليه، فرحّب بي وقال: قد بلغني وِلايتُك فما أحسن ما انتشر عنك، وما أدَّيْت كل الذي لله تعالى عليك، ولا تعد. فجاءت موعظةُ ابنِ عيينة إياي أبلغَ مما صنع ابن أبي يحيىٰ.

وذلك أنه وَلِيَ نيابة القضاء في اليمن، وكان في أشدِّ الحاجة، وكان الأغنياء ووَلِيُّ الأمر في اليمن يداً واحدة في الظلم يأخذون أموال الناس بالباطل ويعتدون عليهم، فلما جاء الشافعي وضع الأمور في نصابها، وانتشر عدله في البلاد عن طريق الحُجّاج، ولكن تألَّب عليه من أُخِذوا بالحق، وبلَّغوا الخليفة الرشيد أن الشافعي يعمل ضد الخلافة فأُخِذ، ولولا لطفُ الله لذهبَ ضحية هذه الشكوى، ونصرة الحق والشجاعة فيه.

٣ ـ ابن المديني:

هو علي بن عبد الله بن جعفر بن نجيح السعدي مولاهم، أبو الحسن ابن المديني البصري، الإمام الحجّة، أميرُ المؤمنين في الحديث، كان أبوه محدثاً مشهوراً ليِّن الحديث.

---

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/١٤٥.

مولـده:

وُلد علي بالبصرة سنة إحدى وستين ومئة.

الثناء عليـه:

قال أبو حاتم الرازي: كان ابن المديني عَلَماً في الناس في معرفة الحديث والعِلَل. قال الأعين: رأيت ابن المديني مستلقياً وأحمد بن حنبل عن يمينه ويحيـىٰ عن يساره، وهو علي عليهما.

وقال يحيـىٰ بن معين: عليّ من أروى الناس عن يحيـىٰ القطان، أرى عنده أكثر من عشرة آلاف، عنده أكثر من مسدَّد.

وقال أبو قدامة السرخسي: سمعت علياً يقول: رأيت كأنّ الثريا تدلَّت حتى تناولتها. قال أبو قدامة: صدّق الله رؤياه، بلغ في الحديث مبلغاً لم يبلغه أحد. وقال الإمام البخاري: ما استصغرتُ نفسي عند أحد إلا عند علي بن المديني.

وعن الإمام البخاري: وقيل له ما تشتهي؟ قال: أن أقدم العراق وعلي بن المديني حيّ، فأجالسه.

علي بن المديني وشيخه سفيان:

حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان بن عيينة حدثني علي بن المديني عن أبي عاصم عن ابن جريج عن عمرو بن دينار، فذكر حديثاً. ثم قال سفيان: «تلومونني على حبِّ عليّ، والله لقد كنتُ أتعلَّم منه أكثر مما يتعلمُ مني».

وعن ابن عيينـة قال: «إني لأرغب عن مجـالستِكم، ولولا علي بن المديني، ما جلستُ».

وقال خلف بن الوليد الجوهري: خرج علينا ابنُ عيينة يوماً ومعنا عليّ بـن المديني فقال: لولا عليّ لم أخرج إليكم.

وكان سفيان يُسمِّي عليَّ بنَ المديني حيّةَ الوادي.

وإذا استُثْبتَ سفيانُ أو سئل عن شيء يقول: لو كان حيّةُ الوادي!

وقال حفصُ بن محبوب: كنّا عند ابن عُيَينة فقام ابن المديني فقام سفيان وقال: «إذا قامت الخيل لم نجلس مع الرجالة».

وقال ابن زنجلة: كنا عند ابن عيينة وعنده رؤساء أصحاب الحديث فقال الرجل الذي روينا عنه أربعة أحاديث، الذي يحدث عن الصحابة؟ فقال علي: زياد بن علاقة، فقال ابن عيينة: زياد بن علاقة.

علي بن المديني والشافعي:

قال علي بن المديني: كان الشافعي لي صديقاً، وكان سبب معرفتي إياه عند ابن عيينة، وكان ابن عيينة يُجِلُّه ويعظِّمُه، وكان يقول «لا تتركْ للشافعي حرفاً واحداً إلا كتبته، فإن فيه معرفة».

محنتــه:

قد أجاب علي بن المديني في محنة خلق القرآن خوفاً من السِّياط فتشوّهت منزلته بين الناس وارتفع كثيـراً شأنُ صـديقه أحمد بن حنبل وقد هجاه بعضهم بقوله:

يا ابن المَدِينيِّ الذي شُرِعتْ له   دُنيـا فجـاد بـدينـه لينـالَهـا

ماذا دَعَاكَ إلى اعتقادِ مَقالـةٍ قد كان عندكَ كافراً من قالَها
أمـرٌ بدا لـك رُشْـدُه فقبلتَـه أمْ زهرةَ الدنيـا أردتَ نوالَهـا

إلىٰ آخر ما قال.

فقال له أحمد بن دؤاد ـ مطيِّباً خاطره ـ: هذا بعض شُرَّاد هذا الوثن ـ يعني ابن الزيات ـ وقد هجَا خيار الناس، وما هدمَ الهجاءُ حقاً، ولا بنى باطلاً، وقد قمتَ وقمنا من حق الله بما يصغر قدر الدنيا عند كثير ثوابه، ثم دعا بخمسة آلاف درهم فقال: اصرفها في نفقاتك وصدَقاتك.

وقـدم ابن المديني البصـرة، فصـار إليـه بُنْـدار ـ من كبـار المحدثين ـ فجعل علي بن المديني يقول: قال أبو عبد الله، فقال بندار على رؤوس الملأ: مَن أبـو عبد الله أأحمـد بن حنبـل؟! قـال: لا، أحمد بن أبي دؤاد، فقـال بندار: عنـد الله أحْتَسِبُ خطاي، شُبِّه عليّ هذا وغضب وقام.

وكان عند إبراهيم الحربي قِمَطْر من حديث ابن المديني، وما كان يحدث به فقيل له: لِمَ لا تُحدِّث عنه؟ قال: لقيتُه يوماً وبيده نعله، وثيابه في فمه، فقلت إلى أين؟ فقال: ألحق الصلاة خلفَ أبي عبـد الله، فظننتُ أنـه يعني أحمـدَ بن حنبـل، فقلت: مَن أبـو عبـد الله؟ قـال: ابن أبي دؤاد، فقلت: لا حـدثت عنـك حرفاً واحداً.

قال عبد الرحمٰن بن أبي حاتم: كان أبو زرعة تَرك الرواية عن علي بن المديني من أجل ما بَدا منه في المحنة، وكان والدي يروي عنه لنزوعه عما كان منه.

والحقّ أنه تاب توبةً صادقة مما قال، لا مما اعْتقد، لأنه في الحقيقة ما اعتقد شيئاً مما قاله ابن أبي دؤاد، ولكنه سايرَه خوفاً من السيف أو الضرب، وجسمُه ضعيف لا يقوى على هذا.

قال ابن عمارٍ المَوْصلي في تاريخه: قال لي علي بن المديني: ما يمنعك أن تكفِّر الجهمي، وكنتُ أنا أوّلاً لا أكفرهم، فلما أجاب عليٌّ إلى المحنة، كتبت إليه أذكِّره ما قال لي، وأذكِّره الله، فأخبرني رجل عنه أنه بكى حين قرأ كتابي ثم رأيتُه بعدُ فقال لي: ما في قلبي مما قلتَ، فأجبت إلى شيء ولكني خفت أن أُقتل، وتعلَم ضعفي، إني لو ضُربت سوطاً واحداً لَمِتّ.

ويقول علي بنِ الحسين بن الوليد: ودّعت عليَّ بن عبد الله المديني فقال: بلّغ أَصحابنا عنّي أن القوم ـ يعني أحمد بن أبي دؤاد وثُلّته ـ كفار ضُلاّل.

وعلى كلٍّ فابن المديني أحد كبار المحدثين، بل هو أحدُ اثنين من كبار محدِّثي عصره ـ أحمد وهو ـ وكل من أتى بعدهما مثل البخاري ومسلم والترمذي وأبي داود والنسائي أخذوا منهما مباشرةً أو بوساطة.

مؤلّفاته:

قال الإمام أبو زكريا النووي: ولابن المديني في الحديث نحو من مئتي مصنف لم يُسبَق إلى معظمها، من ذلك: الأسماء والكنى ثمانية أجزاء، والضعفاء عشرة أجزاء، المدلّسون خمسة أجزاء،

الطبقات عشرة أجزاء، علل المسند ثلاثون جزءاً، من لا يُحتج به ولا يَسقط جـزآن. . . إلى غير ذلك[1].

وفاتـه:

قال حنبل بن إسحاق: أقْدم المتوكل علياً، ورجع إلى البصرة فمات.

قال الذهبي: إنما مات بسامُرّا، قاله البغوي وغيره.

وقال البخاري: مات ليومين بقيا من ذي القَعدة سنة أربع ـ أي أربـع وثلاثين ومئـة عن نحـو ثلاثٍ وسبعين سنـة ـ رحمه الله وغفر له.

٤ ـ أحمد بن حنبل:

لمؤلف هذا الكتاب كتاب كامل في الإمام أحمد بن حنبل، وليس له شأن خاص يتعلق بابن عيينة غير أنه من كبار من أخذ عنه وانتفع به وانتفع منه خَلْق لا يُحصون.

---

(١) انظر تتمة بعض مؤلفاته في «سير أعلام النبلاء»، و«تاريخ بغداد».

مِن كلام سُفيان وحِكَمِه

حكمة المرء نِتاجُ عِلمه وتجارِبه ودِينه وعقلِه. فمن أصَاخ لهذه الحِكَم واعتبر بها أغْنته كثيراً فيحذر ما يضره ويأخذ منها ما به حياته الخيرة الطيبة، على أنه قالوا: لا تُغني تجارب عن تجارب، ولكن المنتفع بتجارب غيره وحِكَمه توفَّر له زمناً طويلاً فلا يجرِّب كلَّ شيء بل يحاول فهم ما لم يُدركه من قبل.

وللإمام سفيان بن عيينة حِكَمٌ كثيرة نكتفي منها بما سنورده إن شاء الله. ونُلقي بعض التعليق عليه.

من حِكَمه في العلم:

«العالم العامل هو الذي تَتمثَّلُ فيه شريعةُ الله كاملةً فينتفعُ الناس به قبل أن يَسمعوا من علمه شيئاً»، وهذا كان شأنَ رسول الله ﷺ يرَى الناسُ فيه الصدقَ والأمانة والاستقامة ورحمة الناس والعطفَ عليهم، وإخلاص العبادة لله وغير ذلك مما لا يحصى قبلَ أن يسمعوا منه شيئاً سواء قبل النبوّة أو بعدها، والعلماء ورثة الأنبياء لا بالتفاخر والتكبر بل بالتواضع والإخلاص. فإن لم يكن كذلك فما يُصنع بالعلم؟ قال سفيان بن عيينة[1] «إذا كان نهارِي نهارَ سفيه، وليلي ليلَ جاهل، فما أصنع بالعلم الذي صنعت؟!»[1].

(١) الحلية ٧/٢٧١.

وقال إبراهيم بن الأشعث: سمعت ابن عيينة يقول: «مَن عَمِل بما يعلم كُفِيَ ما لَمْ يعلم»(١).

القرآن والسنّة:

ذروةُ الأمر كلِّه، وعمودُ الإسلام، وحجّةُ الله على الخلق، بل عمدةُ العلم كلِّه: كتابُ الله وسُنّة رسوله عليه الصلاة والسلام. فالمجتهد منهما يستمدّ، وإليهما مرجعه، فالقرآن كلام الله المتين بلسانٍ عربيٍّ مبين، أنزله الله سبحانه منجَّماً على قلب نبيِّه العربي الأمين، فمن لم يجعل أساسَ إيمانِه ويقينِه، وعلمِه وسلوكِه كتابَ الله ثم سنّة نبيه ﷺ ضلّ رشدُه، واحتار عقلُه، وحَسِب الجهل علماً، والانحراف ديناً، وتعلّق بالبدع لأنه جَهِل السُّنَن وإنما الهدى هدى الله.

قال سفيان بن عيينة: «والله لا تَبْلُغوا ذِروة هذا الأمر حتى لا يكون شيء أحبَّ إليكم من الله، فمن أحب القرآن أحبَّ الله، افهموا ما يقال لكم»(٢).

وقال بشر بن يحيىٰ: سمعت ابن عيينة يقول في قوله تعالى: ﴿ أنزل من السَّماء ماءً فسالت أوديةٌ بقَدَرها ﴾(٣)، قال: أنزل من السماء قرآناً فاحتمله الرِّجال بعقولها. ﴿ كذلك يضربُ الله الحقّ والباطل، فأما الزَّبَدُ فيذهب جُفاءً ﴾ وهو الغُثَاء، وهو قول أهل البدع والأهواء ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾(٣) وهو الحلال والحرام(٤).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٧ ـ ٤٦٨.

(٢) الحلية ٧/٣٠٢.

(٣) الرعد: ١٧.

(٤) حلية الأولياء ٧/٢٧٧.

وأما السنَّة وهي الحديث النبوي فالأساس فيه قوله تعالى: ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبيِّن للناس ما نُزِّلَ إليهم ولعلهم يتفكّرون ﴾[1]. والخطاب للنبي ﷺ، والحديث النبوي كلُّه لتبيين مقاصدِ كتاب الله. وقوله تعالى: ﴿ فلا وربِّك لا يؤمنون حتى يحكّموك فيما شجر بينهم، ثم لا يجدوا في أنفسهم حَرَجاً مما قضيتَ ويسلّموا تسليماً ﴾[2]، وقوله تعالى: ﴿ قل أطيعوا الله والرسول، فإن تَوَلَّوْا فإنّ الله لا يحبّ الكافرين ﴾[3] كأنه قال: أطيعوا الله في كتابه وأطيعوا الله ورسوله في سنّته، فمن لم يفعل فإنّ الله لا يحب الكافرين.

قال ابن عيينة في حديث رسول الله ﷺ: من طلبَ الحديث فقد بايع الله [4].

الزهــد:

ليس الزهدُ لبسَ الخَشِن من الثياب ولا أكل الجَشِب من الطعام، ولا رَدّ بارِد الشراب في حمَارَّة القيظ، واختيار الساخن ولا اجتياز الصحراء بلا زاد، فإن كان هناك من يظنّ أن هذا وأمثالَه واجتنابَ المباح هو حقيقةُ شرع الله فهذا كذبٌ على الله. وإنما الزهد ترك الحرام والاجتهاد في ترك المشتبه، فأما المباح فمن حرّمه على نفسه أو على غيره، فقد حرّم ما أحلّ الله وضلّ وهو يظنّ أنه في غاية من الهدى والورع.

---

(١) النحل: ٤٤.

(٢) النساء: ٦٥.

(٣) آل عمران: ٣٢.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٢٨٠.

قال المسيّب بن واضح: سئل ابنُ عيينة عن الزهد فقال: «الزهد فيما حرمه الله، فأمَّا ما أحل الله فقد أباحَكَهُ الله، فإن النبيين قد نكحوا وركبوا ولَبسوا وأكلوا، ولكنّ الله نهاهم عن شيء فانتهوا عنه، وكانوا به زهّاداً».

والزهد أيضاً أن تحدِّث بنعمةِ الله تعالى عليك إذا جاءَتْك وأن تشكر له في كل قليل أو كثير مما أنعَمَ الله به عليك. وإذا منع الله أحداً شيئاً هو شديدُ الحاجة إليه صبرَ ورضي، وكان هذا شأن نبيِّنا عليه الصلاة والسلام، إن جاءه شيء من طعام أو كساء أكل واختار أطيبه في نفسه وإذا لم يأته صبرَ ورَضي، لا يردُّ نعمةً أتت إليه ولا يَتَمَلْمَل إن لم تأته، بل يرضى بكلٍّ ما يأتي به الله وما يمنعه. قال أحمد بن الحَوارِي: قلتُ لسفيان بن عيينة: ما الزهد في الدنيا؟ قال: «إذا أنعم الله عليه فشكر، وإذا ابتلي ببليّة فصبر، فذلك الزهد»[1].

ومِن شكرِه على النعم أن تستعين بنعمه على طاعته، وأن تزداد في العبادة والتقوى، وأن لا تستعمل هذه النعم في ما حرَّم الله. قال أبو عبد الله الرازي: قال لي سفيان بن عيينة: «يا أبا عبد الله إنّ من شكر الله على النعمة أن تحمده عليها وتستعينَ بها على طاعتـه، فما شَكَر الله مَن اسْتَعان بنعمتِه على مَعْصِيته»[2].

---

(1) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٨.
(2) الحلية ٧/٢٧٨.

الزهد: الصبر:

ومن كلام ابن عيينة قال: «الزهدُ: الصبرُ وارتقاب الموت»(١).

الصبرُ على القِلّة، والصبرُ على البليّة، والصبر على كل مُنَغِّصات الحياة، والصبر التجلُّد، فإذا جمعتَه مع الرضا بما كتب الله لك كنت مؤمناً حقاً. وأمَّا ارتقاب الموت فإنه مَن راقبَ الموت خشي الوقوعَ في الإثم وازداد رَغبةً في رضاء الله، وقنع من الدنيا بالحلال، وبما يأتي به الله قليلاً أو كثيراً، ولا يعلق قلبه بما يَفْنَى، بل يعلق قلبه وجَوارِحه بالحيِّ الباقي.

وكان ابن عيينة يقول: «ليس من حبِّ الدنيا طلبُكَ منها ما لا بُدَّ منه»(٢).

الزهد الظاهر:

قد ترى شخصاً يلبس أحسن الثياب وأجملها، وعنده من المال ما لم يبلغه أكثر الناس تعلّقاً بالمال، وعندما يدعوه داعي الزكاة والإنفاق في سبيل الخير وفي سبيل الصدقات يبادر من غير أن يَشعر أحد أنه المعطي أو أنه في نفسه خيرٌ من الآخذين من الفقراء والمساكين، ويكتم هذا حتى بين أهله وخاصّته إلا إذا ظهر عن غير طريقه. والمَثَل الأكبر لمثل هذا سيدنا أبو بكر رضي الله عنه ومِثْله سيدنا عثمان رضي الله عنه. وكثر أمثال هؤلاء في الصحابة والتابعين، وقد يوجد في كل عصر، فهؤلاء هم الزهّاد. والزهد عدم تعلّق القلب بكل محبوب في هذه الدنيا الفانية. وقد ترى

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٢.

(٢) الحلية ٧/٢٧٨.

شخصاً عليه أسمالٌ بالية فتحسب أنه سائل وإذا حدَّثك حدَّثك عن الزهد وهو في حقيقته من أشد الناس تعلقاً بالدنيا يرائي الناس بمظهره ويُبقي مخبره للدنيا. كانوا يقولون: إذا رأيتَ نفسك أنك زهدت فهذا من الرياء، والرياء رفيق المسرب إلى الزهاد والزهد، وكان سفيان بن عيينة يقول: «كم شخص يُظهر الزهد في الدنيا والله مُطَّلِع على قلبه أنه محبٌّ لها»[1] وقيل لسفيان: «ألا تبني بيتاً؟ قال: إني على طريق السبيل»[2] أي إني ماضٍ إلى الله حاملٌ معي عملي.

الزهد والعبادة والفقه:

قال سفيان بن عيينة: «لا تصلح عبادة إلا بزهد، ولا يصلح زهد إلا بفقه، ولا يصلح فقهٌ إلا بصبر»[3].

المتعبد لا يجتمع في قلبه معبودان، والأصل: إفراد المعبود بالعبادة وهذا هو الزهد، وهو أن تخلع من قلبك كل ما يَشغلك عن الله سبحانه وتعالى من كل أمرٍ من أُمورِ الدنيا. وهذا قول سفيان: لا تصلح عبادة إلا بزهد ولا يصلح زهد إلا بفقه، لا يَعني بالفقه حفظ عبارات الفقهاء المبثوثة في كتب المذاهب، إنما يريد أن تفقه عن الله في كتابه الكريم، وعن رسوله في حديثه النبوي فقه القلب والعقل والجوارح، وهذا كلُّه محتاج إلى صبر، وإلَّا تكون العبادة جوفاء ليس فيها إلا الحركات من القيام والركوع والسجود

---

(١) طبقات الشعراني ١/٥٧.

(٢) حلية الأولياء ٧/٢٧٣.

(٣) حلية الأولياء ٧/٣٠٢.

والتلاوة باللسان، وهي في حقيقتها مَيْتة، فَقَدَتْ الروحَ الذي كان به رسول الله ﷺ يقول: أرِحنا بها يا بلال. ونحن نقول في ذات أنفسنا: أرِحْنا منها. وشتان بين أرِحْنا بها، وأرِحْنا منها.

العبادة في ترك ما نُهينا عنه:

قال سفيان بن عيينة: «لم يجتهدْ أحدٌ قطُّ اجْتهاداً، ولم يتعبّد أحدٌ قطُّ عبادةً أفضلَ من تَركِ ما نَهى اللهُ عنه».

الأمر الذي لا اختلاف فيه أن ترك المعصية مقدَّم على فعل الطاعة، لأن ترك المعصية فرض عين على من ارتكبها، والبناء على غير أساس أو على أساس ضعيف مؤذِنٌ بالتداعي والسقوط، فتركُ الذنب والتوبة النصوح، مقدَّمان على فعل الطاعات، وما شُرِعت الطاعات إلا لتحقيق أن يكونَ الإنسانُ مبرّءاً من كل ذَامٍّ أو حرام أو عيب، يقول تعالى: ﴿ إنّ الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ﴾(٢). والأصل في كل هذا اعتقاد أن لا إلَهَ ولا نافعَ ولا ضارَّ ولا رازقَ ولا مانعَ ولا مُعطيَ إلا الله سبحانه، وهذا يدعو إلى محبة الله التي لا محبة فوقها، وإلى محبة رسوله ﷺ. وعلى قدر هذه المحبة تكون الطاعة، وترك المخالفة، ومن لا يُبَالي أن يفعل ما نهى الله ورسوله عنه نقص من محبته على قدر ذلك، إلى أن لا يبقى منها شيء.

وكان سفيان بن عيينة يقول: «لا إله إلا الله بمنزلة الماءِ في

---

(١) صفة الصفوة ١٣٣/٢.

(٢) العنكبوت: ٤٥.

الدنيا فمن لم يكن معه لا إله إلا الله فهو مَيت، ومن كانت معه فهو حي».

وعن عبد الرحمٰن بن بشر قال: سمعت ابن عيينة يقول: «غَضَبُ الله الداءُ الذي لا دَواء له، ومن استغنى بالله أحوجَ الله إليه الناس»[1]. من تمادى في الكبائر وأصّر على الصغائر ولم يَتُب إلى ربّه ولم يتب من ذنبه فهو الذي باء بغضب الله. ومن استغنى بالله ورَضي بقسمة الله ولم يحتج أحداً من خلق الله أعزَّه الله فأحْوَجَ إليه خلْقَه.

السريرة والعلانية:

وبعض الناس يُعنَوْن بمظهرهم وبعلانيتهم التي تُرضي الناسَ عنهم أكثر مما يُعْنَون بسريرتهم التي تُرضِي عنهم رب الناس، ويختلفون بمظاهِرهم اختلاف الناس بمذَاهِبهم ومَشارِبهم، فإن كانوا من أهل المال جارَاهم فيما هم بسبيله، وإن كانوا من أصحاب الدين سابقهم إلى التحدّث بالدين، وإظهار التقوى، وإطالة الركوع والسجود في الصلاة، والطعنِ على مَن خالف، وإن خَالطوا أهل الفجور بادَرُوهم إلى أسباب الفجور، وظهر منهم ما لم يُظنَّ أنهم أهلٌ لذلك، وهذا مع الأسف أصبح كثيراً بين الناس ممّن أضاع شخصيته، فلا يَعرف ما يريد، ولا إلى أين يتّجه، وسيغدو عند الناس ممقوتاً وعند رب الناس من المغضوب عليهم. يقول سفيان بن عيينة: «من تزيَّن للناس بشيء يعلم الله منه غير ذلك شانَهُ الله»[2].

(1) سير أعلام النبلاء ٨/٤٧٣.

(2) صفة الصفوة ٢/١٣١.

ويقول ابن عيينة أيضاً: «إذا وافقتِ السريرةُ العَلانية فذلك العَدْل، وإذا كانتِ السريرةُ أفضلَ من العَلانية فذلك الفضل، وإذا كانت العلانية أفضلَ، فذلك الجَوْر»[1]. وقد نسميه نفاقاً.

التكبُّـر:

التكبُّرُ مرضٌ نفسيّ فيه شيء كمين من الشعور بالحقارة لذلك يتكلف أن يكونَ كبيراً، والتكبُّر من صيغة التفعُّل، وهذه الصيغة للتكلُّف، فإذا الحقير تكلّف أن يكون كبيراً يقال فيه: تكبَّـر. ويرحم الله الجاحظ كان يقول: «ما تكلَّف متكلِّفٌ قَطّ إلا لنقصٍ يجدُه في نفسه».

وكلُّ من تكبَّر من خَلْق الله فهو من جنود إبليس، لأنه أوّلُ من تكبّر. يقول ابن عيينة: «من كانت معصيتُه في الشهوة فارجُ له ـ أي المغفرة إن تاب وأناب ـ ومن كانت معصيته في كبر فاخْـشَ عليه، فـإنَّ آدمَ عَصَى مُشتهياً فغُفِر له وإبليسَ عصَى متكبراً فلُعِن»[2].

والتكبُّر مَرضٌ مُستَعْصٍ والتخلُّصُ منه عسير، لأنه يرى أنه خير الناس. فممّن يستفيد وممن يتّعظ إذا كان يَرى أن الناسَ دونه؟ وربما يرى أنه قد كَمَل فيركبُه الغرور، والغرور وليد الكبر. وكان سفيان بن عيينة يقول: «مَن رأى أنه خير من غيره فقد استكبر وذلك أن إبليس إنما منعه من السجود لآدم استِكْبارُه»[3] وكلمة إبليس

(١) صفة الصفوة ٢/١٣٢.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦١.
(٣) الحلية ٧/٢٧١ ـ ٢٧٢.

التي استكبر بها ﴿أنـا خيرٌ منـه خلقتني من نارٍ وخلقتَـه مِن طين﴾[1].

من لا يُصلح فسادَه:

يقول أبو محمد سفيان بن عيينة: «بحسب امرىء من الشر أن يرى في نفسه فساداً لا يُصلحه».

إن من الناس من لا يرى في نفسه فساداً، بل يرى أن أعماله كلَّها في صلاح وإصلاح، بل منهم من يرى أن فساده هو الصلاح والإصلاح، ومثل هؤلاء ينطبق عليهم قوله تعالى ﴿وإذا قيل لهم لا تُفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون﴾[2] أي ما ترونه فساداً هو الإصلاح ذاته وهم اليهود، أفسدُ خَلْق الله، إنسِهم وجنهم. فكيف يُصلح فسادَه من ظن أن فساده إصلاح؟! ومن كانت هذه طريقته فهو إلى التهوُّد أقرب.

أما المسلم الحق فهو دائم البحث في نفسه إن كانت نزعت في دِخلتها إلى شيء من مخالفة الله ورسوله، أو إلى شيء من فساد النفس في الطمع أو الغضب أو الحقد أو الحسد أو غير ذلك، فهو دائم الخوف أن يكون الشيطان قد زرع في نفسه بذرة سوء، فيبادر إلى نزعها قبل أن تنمو وتكبر، فإنه إن أهملها تُصبِحُ جِذعاً يحمل شجرة كلُّها سوء من عمل الشيطان.

---

(١) الأعراف: ١٢.

(٢) البقرة: ١١.

كيف يكمل المرْء؟:

قال محمد بنِ عمرو بن العباس، سمعت سفيـان بن عيينة يقول: «إذا جَمعتُ هاتين كَمُل أمري: إذا صبَرْتُ على البلاَء، ورضيتُ بالقضاء».

وقال سفيان: وقال عمر بن الخطاب: «ما أبالي علىٰ ما أصبحت، على ما أحِبُّ، أو على ما أكره، إني لا أدري الخير فيما أحبُّ أو فيما أكره»[١].

وهذه هي القوة التي لا قوة فوقها، وهذا هو الإيمان المتين، وهذا هو الجبل الراسخ الذي لا تميده العواصف والقـواصف والزلازل فمن ملك هذا الإيمان لا يبالي أصَبَّحَه الخير أو البلاء، وسواءٌ لديه مسَرّات الدنيا أو مَساءاتها، لأنها كلَّها من قدر الله، فمن رَضِيَ بالقدر رَضِيَ بكل ما يأتي به، وقد تكون عاقبة المسراتِ البليّات، وتكون عاقبة البلاء الخيرَ كلّ الخير ﴿ وعَسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شرّ لكم ﴾[٢].

وسـواءٌ صـوت النعي إذا قيـ ـس بصوت البشير في كل ناد

فالمؤمن صادق الإيمان لا يبيت إلا راضياً عن الله لأنه يشهد أنّ كل شيء بفعل الله سبحانه.

---

(١) حلية الأولياء ٧/٢٧١.
(٢) البقرة: ٢١٦.

من ينبغي أن تعرفَه؟:

وكان سفيان بن عيينة يقول: «من لا تنتفع به فلا عليك ألّا تعرفه»[١]. المرء الذي لا تنتفع فيه بدينه وعلمه ودنياه لا تبال ألّا تعرفَه أو تجهلَه، فمثله كمثل حجر في جبل لا يُلقِي إليه نظر الناظر. وقديماً قيل:

إذا أنتَ لم تنفع فضر فإنما ... يُرجَّى الفتى كيما يضرُّ وينفع

إذا أنت لم تنفع قريبك أو صاحبك ولم تضر عدوَّك أو صديقَ عدوك ولا تُرْجَى لشيء فما أنت بشيء، بل أنت والموت سيّان.

أما إذا كان ذا دِين، فإنك تنتفع في صحبته ومعرفته ديناً وتَقوىً وإن لم يتكلَّم، أو كان صاحبَ علم فإنك تنتفع بعلمه، أما صاحب الدنيا فقلّما ينتفعُ المرء به، لأن أعزَّ شيء لديه دُنياه، فلا يغيث مَلْهوفاً ولا يُولي ولياً ولا يعادي عَدُواً إلا من أجل دنياه، إلا إذا كان على سنَن الصالحين من أغنياء السلف يبذلون مالهم وجاههم في سبيل كل أخ في الله. وهم في عصرنا هذا أقلُّ من القليل، وما عدا ذلك فلا عليك ألّا تعرفَ أحداً من الناس لأنك تضر في صحبتهم.

الغِيبة والدَّيْن:

قال سفيان بن عيينة: «الغِيبة أشدّ من الدَّيْن، والدَّيْن يُقضى والغِيبة لا تُقضى»[٢].

الغريب أن معظمَ الناس لا يبالون بالغيبة ولا يعدُّونها شيئاً

(١) طبقات الشعراني.
(٢) حلية الأولياء ٧/٢٧٥.

وخصوصاً النساء، لا يجتمع شخصان أو أكثر ولو في الطريق إلا ويبادرون إلى الغِيبة، فبالغيبة تندُّرهم، وبالغيبة لهوهم، وبالغيبة جدّهم، وبالغيبة هَزْلهم، فإذا استغاب إنسان ثنّى عليه الآخر بغيبةٍ أقبحَ، وثلّث الثالث بغيبة أقبحَ وأسمج، وربما إذا لم يجد ما يستغيب به افترى وكذب واستغاب، وبعضهم قد يرى صديقاً أو أي إنسان آخر فيسلِّم عليه أحرّ السلام وأطيبَه وأعذبه ومدحه بوجهه مدحاً عجيباً فإذا انثنى عنه قليلاً ورأى آخر ذمَّهُ أقبح الذمّ وأوجعه مستعذباً لغيبته. والله تعالى صوّر الغيبة في كتابه الكريم صورةً بليغة، فيها من التنفير والتقزيز ما لو استوعبه المرء لامتنع من الغيبة ولفرّ منها فرار الظليم من الأسد، وهو قوله تعالى ﴿ ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحبّ أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه ﴾[1].

وقول سفيان: «الغيبة أشدّ من الدَّيْن» كلام لو انتبه إليه المستغيب لكفاه أن يُقلع عن الغيبة، لأن الدَّين يسدُّه إن كان قادراً، وإلا ﴿ فنَظِرَة إلى ميسرة ﴾ وإن مات وهو عاجز عن سداد دينه فعسى الله أن يغفرَ له ويرضي عنه صاحب الدَّيْن.

أمَّا المستغيب فلا تصح توبته إن تاب حتى يَستسمح مَن اغْتابه، فإن كانوا كثيرين كيف يُحصيهم؟ وكيف يستذكرهم كلَّهم؟ ولو استطاع إحصاءَهم هل يضمن أن يسامحوه، فهو بهذا يختلف عن الدَّيْن، فالمستهين بالاستغابة مستهين بالموقف يوم القيامة؛ يوم يأخذ المستغابون من حسنات المستغيبين يستَوْفُون حقوقهم، فإن نفِدت حسناتُهم أو لم يكن لهم حسنات أُخِذ من سيّئاتهم فأُلقيت عليهم.

---

(١) الحجرات: ١٢.

المـدح:

عن النبي ﷺ أنه قال: «إذا رأيتم المدّاحين فاحثُوا في وجوههم التراب»[1]. ما يهتز المرء ويطرَب مثلَ ما يهتز ويطرب للمدح، وخصوصاً إذا كان المدحُ في الوجه، وهـذا في طبيعة المـرء ونِجاره، وكُلَّما بالغَ المادح في مدحه ازداد الممدوحُ مرحاً وفرحاً وأَرْيَحِيّةً، ومحبةً للمادح. ولو يعلمُ المادحُ ما صنع في الممدوح لكفَّ واستغفر الله. فأول ما يورث المدح: الغُرور، فلا يتقدمُ فيما مُدِح فيه قِيد شعرة والغرور مرضٌ نفسيّ يقضي على الطموحِ، ويُفسد الأهلية ويُضعف الملكة ويجعل المرء ـ قبل أن يكون كبيراً ـ متكبِّراً، فإذا خالط من هم أعرفُ وأمهر فُوجِىء بأمرٍ ليس بحسابه فيكشف ويقتل عنفوانه وشهرتُه وتَضعف شخصيته.

وقد يحسن المدح أحياناً للصغار لتشجيعهم على عملٍ ما، أو علمٍ ما، إن رأينا أنَّ المدح لهم داعيةُ دفعٍ لِهِمَمِهم.

أما الكبار الذين عرفوا أنفسهم وبلغوا رتبة النُّضْج فلا يزيدهم مَدْح ولا يوقفُهُم قَدْح. قال سفيـان بن عيينة: يقـول العلماء: «المدح لا يَغرُّ من عَرَف نفسه»[2].

فضل العلم:

يقول ابن عيينة: «لم يُعطَ أحدٌ في الدنيا شَيئاً أفضلَ من النبوة، ولم يُعطَ بعد النبوة شيْءٌ أفضلُ من طلبِ العلم والفِقه، ولم يعطَ

---

(١) رواه مسلم.

(٢) الحلية ٧/٣٠٢.

في الآخرة أفضلُ مِن الرحمة. فقيل: يا أبا محمد، عمن هذا؟ فقال: عن الفقهاء كلِّهم».

وفي الخبر: «العلماء مصابيح الأرض وخلفاء الأنبياء وورثتي وورثة الأنبياء».

العلماء أنبلُ الناس، أيُّ عِلم اختصوا به مما ينفع الناس، وأنبلُهم علماء الشريعة الذين أتقنوا كتاب الله حفظاً وفقهاً، عِلماً وعملاً، وأتْقَنوا حديثَ رسول الله ﷺ مَتْناً وسَنَداً، وميّزوا ضعيفه من صحيحه ثم فقهوا ذلك وعملوا بما فقهوا. وليس نَقَلة الفقه من الكتب دون معرفة دليلها ودون تمييز باطلها من حقها بالعلماء ولا الفقهاء فما هؤلاء إلا نُسَخ عن الأصل لا تُباع ولا تشرى.

وقول سفيان: لم يعطَ بعد النبوَّة شيء أفضلُ من طلب العلم والفقه ـ يريد العلماء من أمثاله ـ ومثل من عُرِف في زمنه كالإمام مالك والشافعي وأحمد والزهري وأبي حنيفة ومحمد بن الحسن والمزني وابن راهويه وأمثالهم، ومن تأخّر عنهم من مرجِّحي المذاهب، فهم لم يُرَجِّحوا إلا بدليل، فهؤلاء وأمثالهم في هذه الدنيا كالماء للصَّادي، وفي الآخرة أوْسعوا الطريق إلى الجنة، وضَيَّقوا الطريق إلى النار.

وقال سفيان بنِ عيينة «إنما العالم مثلُ السراج، من جاءَه اقتبس من عِلْمه، ولا ينقُصه شيئاً، كما لا ينقصُ القابس من نورِ السِّراج شيئاً»(١).

---

(١) العقد ٢/٢١٤.

بل قال علي رضي الله عنه: «العلمُ يزيد بالإنفاق» وهذا أدق.
وقال سفيان بن عيينة أيضاً في قوله تعالى: ﴿ومن يُطِعِ الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصدِّيقين والشهداء والصالحين...﴾[1]. قال: «الصالحون: أصحاب الحديث»[2] لأن طاعة الله بهَدْي كتابه الكريم وطاعة الرسول من طاعة الله، ونعلم ذلك مما ثبت عنه من حديث نبوي ثابت وإلا كيف نعلم طاعة رسول الله ﷺ إذا لم نهتم بأقواله.

أول العلم الاستماع:

عن محمد بن بشر الحارثي قال: سمعت ابن عيينة يقول: «أول العلم الاستماع، ثم الإنصات، ثم الحفظ، ثم النشر»[3].

هكذا رتَّبها أبو محمد سفيان رحمه الله فقال: أول العلم الاستماع. فالاستماع أول الطريق للتعلّق بعلم، وجعل الإنصات غيرَ الاستماع، لأنه فيما يَرَى أن الإنصاتَ فيه الإدْراك والفَهْم مع الاستماع، وإذا أدْرك وفَهِم فَقِه العلمَ، وكان له فيه نوعُ اجتهاد، وبعد هذا يأتي الحفظ لكل ذلك: أي أنه يحفظ النصّ، ثم يفهمه، ثم يدرك أبعاده، ومَراميه، وما يمكن أن يؤخَذ منه ويُستنبط، فإذا انتهى إلى كل ذلك صلح أن يجلس إلى الناس يُسمعهم ويُعلّمهم، وصلح أن يؤلِّف الكتب وينشرها بين الناس. وهذا تقسيم جيد، فيه الكثير من اللَّفتات في توجيه التربية العلمية.

---

(١) النساء: ٦٩.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٩.
(٣) الحلية ٧/٢٧٤.

أما أولئك الذين يكتفون بالسماع ليكونوا علماء فهؤلاء ليسوا بشيء يُذكر.

العلم والعمل:

وكان سفيان بن عيينة يقول: «ما عليك أضرّ من علم لا يُعمل به»(١).

العلم أشرف من العمل، ومع ذلك لا بد له من العمل، والعمل بغير علم وغير دليل قد يورد إلى التهلكة، قد يظن أنه يسبِّح الله أو يوحِّده فيقول ما لا يليق بذات الله، وقد يمدح رسول الله ﷺ فيعطيه صفة الخالق العظيم فيقع في الشرك، فإذا عمل العالم، وتحرَّى في عبادته وتسبيحه وذكره أن يكون على ما كان عليه رسول الله ﷺ فذاك العالم العامل. يقول الغزالي في مقدمة كتابه «المستصفى» في الأصول: «الطاعة طاعتان عمل وعلم، والعلم أنجحها وأربحها، فإنه أيضاً من العمل، ولكنه عمل القلب الذي هو أعزّ الأعضاء، وسعي العقل هو أشرفُ الأشياء، لأنه مركب الديانة وحاملُ الأمانة، إذْ قد عُرضت على الأرض والجبال والسماء، فأشفقن منها وأَبَيْنَ أن يَحْمِلْنها غايةَ الإباء».

ومن العلم بغير عملٍ أن يعمل المتفقه بقول أهل الفقه ثم يجد الحديث الثابت مخالفاً لقول الفقيه، فيدع الحديث ويعمل بقول الفقيه. وكثيرٌ من الفقهاء ـ والمتأخرون منهم خاصة ـ لا يُعْنَوْن بحديث رسول الله ﷺ، بل منهم من يرى أن الحديث إنما يُقرأ للبرَكةِ لا للعلم.

---

(١) طبقات الشعراني ١/٥٧.

وقال ابنُ عيينة: «العلمُ إذا لم ينفعك ضرك» بل ضرَّ بكَ، لأنك إن عملت به نفعك عند الله بعملك وبعلمك، وإن لم تعمل ضرّك بالدنيا فلم يبال أحد من أهل العلم بك، وبآخرتك إذ تحاسَب عليه أشدّ الحساب، والله تعالى يقول: ﴿ يا أيها الذين آمنوا لَمَ تقولون ما لا تفعلون، كَبُر مَقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون ﴾[2]. والمقت: البُغض، قلنا: بل ضرَّ بك، لأنه يَرَاك الجاهـل فيجدُك متساهلاً في ترك الواجبات والسنن، بل لا تبالي أن تأكل الحرام فيجعلك قُدوةً ويستشهد بك فتحمل عند ذلك وزرَك ووِزْرَ من اقتدى بك. وكان أبو محمد ابن عُيَينة يقول في قريب من هذا المعنى: «إذا كان نهاري نهارَ سفيه، وليلي ليلَ جاهل فما أصنع بالعلم الذي كتبت»[3].

الورع والعلم:

عن ابن عيينة قال: «الورع: طلب العلم الذي به الورع»[4].

الورَع: ترك المشتبه، والمشتبه: هو الذي لم يتبيّن حلاله بيقين ولم يتبيّن حرامه كما قال عليه الصلاة والسلام: «إن الحلال بَيِّن وإن الحرام بيِّن وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام، كالراعي يرعى حول الحمى يوشِكُ أن يقع فيه،

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٢.

(٢) الصفّ: ٢ و٣.

(٣) طبقات الشعراني ١/٥٦.

(٤) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٥.

ألا وإنّ لكل مَلَكٍ حِمىً، ألَا وإن حمى الله محارمه»[1]. ويقول عليه الصلاة والسلام: «دع ما يَريبك إلى ما لا يريبك»[2].

فهذا هو الورع، وإنما مُدح العالم لأنه يستطيع أن يعرف الحلال والحرام، ويعرف ما لم يظهر حلُّه ولا تحريمُه وهو المشتبه، وكم من العلماء من ترك المشتبه وعاش عيشة الكفاف خوفاً أن ينزلق إلى الحرام. أما في هذه الأيام ـ مع الأسف ـ فيؤوِّلون المشتبه لمصلحتهم فيجعلونه حلالاً، وقليل جداً من اقتصر على الضروري من المطعم والمشرب والمسكن، فالضرورات تبيح المحظورات فضلاً عن المشتبهات.

البدعة:

قال سفيان بن عيينة: «ليس في الأرض صاحبُ بدعةٍ إلا وهو يجد ذِلَّة تغشاه. قال: وهي في كتاب الله، قال: أما سمعتم قوله تعالى: ﴿ إن الذين اتخذوا العجلَ سَيَنالُهم غضبٌ من ربهم وذلّة في الحياة الدنيا ﴾[3]، قالوا: يا أبا محمد، هذه لأصحاب العجل خاصّة، قال: كلا، اتلوا ما بعدها: ﴿ وكذلك نجزي المفترين ﴾[3] فهي لكل مُفترٍ ومُبْتدع إلى يوم القيامة»[4].

والبدعةُ بدعتان: بدعةٌ مكفِّرة، وبدعةٌ مفَسِّقَة.

---

(١) رواه البخاري ومسلم وتمامه: «ألا إنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كلّه وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب».

(٢) رواه النسائي والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

(٣) الأعراف: ١٥٢.

(٤) حلية الأولياء ٧/ ٢٨٠.

فأما البدعة المكفرة فما يمسّ التوحيد، وإنكار كل معلوم من الدين بالضرورة، وإنكار ما كان قطعيَّ الدلالة وقطعيَّ الثبوت من كتاب الله والمتواتر من حديث رسول الله ﷺ.

وأما البدعة المفسِّقة فإنكار الثابت من حديث رسول الله ﷺ من غير علّة ظاهرة كالنسخ والاختصاص برسول الله ﷺ وغير ذلك من العلل التي يعترف بها مجتهدو علماء المسلمين.

ومن هؤلاء مَن يزيدون في دين الله، أو ينقصون مما ليس لهم به سلطان مبين. يقول رسول الله ﷺ: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ» أي مردود. رواه البخاري ومسلم عن عائشة فرسول الله ﷺ يقول: فهو رَدّ، والمبتدعة يقولون: بدعة حسنة، وكيف تكون حسنة وهي مردودة بقول رسول الله. وعن أبي نجيح العرباض بن سارية قال: وَعَظنا رسول الله ﷺ موعظةً وَجِلت منها القلوب وذَرَفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله كأنها موعظةُ مودِّع فأوصنا، قال: «أوصيكم بتقوى الله عز وجل والسمع والطاعة وإن تأمَّرَ عليكم عبدٌ، فإنه من يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنَّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، عضُّوا عليها بالنواجذ وإيّاكم ومحدثاتِ الأمور، فإن كلَّ بدعة ضلالة». رواه أبو داود والترمذي وقال: حديث حسن صحيح.

وثبت عن ابن عباس أنه قال: «ما أتى على الناس عام إلا أحدثوا فيه بدعة وأماتوا فيه سُنّة، حتى تحيا البدع وتموت السنن»(١).

(١) كتاب اتباع السنن للحافظ ضياء الدين المقدسي: ٢٤.

وهناك آثار كثيرة في هذا المعنى وأقوال لكثير من الصحابة والتابعين، ومع ذلك ففي زماننا في كثير من البلاد الإسلامية كثيرٌ ممن تسمَّوا علماء ينتصرون للبدعة ويدافعون عنها كأنها آية من كتاب الله، فهم يستبدعون السُّنة، ويستنّون البدعة، ويحشدون لبدعهم الأدلة التافهة التي لا تُقنع إلا من أضل اللهُ سعيه. وأما من يدعو إلى السنّة ويدعو إلى الأحاديث النبوية الثابتة وينكر البدعة ويحذّر منها فهم قلّة ومستهدفون لطعن المبتدعة والتنفير منهم ونعتهم بنعوت تستدعي كراهية الناس لهم، وليس لهم من ذَنْب إلا أنهم ينصرون سنّةَ رسول الله وينكرون البدعة.

العبادة: التفكّر والاعتبار:

روى سفيان بن عيينة عن مالك عن عون قال: سألنا أم الدرداء قلنا: ما كان أفضلُ عبادةِ أبي الدرداء؟ قالت: «التفكُّر والاعتبار»[(١)].

كان أبو الدرداء رضي الله عنه موصوفاً بالحكيم ـ وصفه رسول الله ﷺ بقوله: أبو الدرداء حكيمُ أمتي ـ ومعروفاً موصوفاً بالعقل، ومشهوراً بالعلم، بل هو أحد كبار الصحابة بالعلم والزهد.

تقول زوجه عن أفضل عبادته أنها: التفكر والاعتبار، وهي أعلى مراتب العبادة، قال الله تعالى: ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآياتٍ لأولي الألباب الذين يذكرون اللهَ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكّرون في خلق السموات والأرض ربّنا

---

(١) حلية الأولياء ٧/٣٠٠.

ما خلقتَ هذا باطلاً سبحانك فقنا عذاب النار ﴾. يَلفت الله تعالى نظر الإنسان الذي وهبه العقل والإدراك إلى آيات الله في خلقه فيدركُ عند ذلك عظيمَ قدرة الله فيما دَقَّ وما جلَّ من خلقه، هؤلاء الذين يتفكّرون هم الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم. والمراد ـ والله أعلم ـ أن تذكُّرَ الله تعالى لا يَغيب عن عقولهم وقلوبهم، بل عن جميع تصرفاتهم طرفةَ عين. والمراد بقوله تعالى ﴿ قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ﴾ جميعُ أحوالهم، فإن الإنسان إما قائم ـ ومثله الماشي والساعي ـ وإما قاعد، وإما على جنبه ـ ومثله المستلقي ـ.

وهذا لا شك أفضل الذكر، أما الذين يذكرون بألسنتهم وقلوبهم فارغة من معاني الذكر التي فيها تعظيمُ الله تعالى وإجلاله وتسبيحه والعبودية الخالصة له فهؤلاء ليسوا بالذاكرين.

وكان أبو محمد سفيان بن عيينة يقول: «الفكرة نورٌ تُدخله قلبك» وكان يتمثل:

إذا كانت له فِكرة ففي كل شيء له عِبرة[1]

وكان يقول: «التفكُّر مفتاح الرحمة، ألا ترى أنه يتفكّر فيتوب»[2]. وكان أبو محمد يقول: «ما تنعَّم متنعِّم بمثل ذكر الله»[3] أي يذكره بلسانه ويحفظه في قلبه.

والأصل في معنى الذكر عدم النسيان، بأن تتعهد ما تذكره بعقلك وقلبك وحسِّك بل بجميع جوارحك.

(١ و ٢) حلية الأولياء ٧/٣٠٦.

(٣) الحلية ٧/٣٠٧.

ومن الذكر تسبيح الله وتحميده وتنزيهه، وتوحيده، ولا شكّ أنّ أفضل الذكر بعد التفكّر والاعتبار ما ثبت عن رسول الله ﷺ من أدعية وأذكار أما ما يخترعه بعض الشيوخ من أذكار ومن الصلاة على النبي ﷺ فأكثرها لا خير فيه.

العدو الصالح والصديق الفاسد:

قال أبو محمد سفيان بن عيينة: كان يُقال: «عدوٌ صالح خيرٌ من أن يكون لك صديقٌ فاسد، لأنّ العدوّ الصالح يحجزه إيمانُه أن يؤذيكَ أو ينالَك، والصديق الفاسد لا يبالي ما نال منك»[1]. وهذا كما كانوا يقولون: «عدوٌّ عاقل خير من صديق جاهل».

وحكمة سفيان أَوْلى من هذه، لأن ذاك العدوّ مرهون بصلاحه ـ أي دينه وإيمانه ـ والدين والإيمان يحجزان من تَمَسّك بهما عن تجاوزهما، مهما تبلغ عداوته، أما الصديق الفاسد فيحاول أن ينفعك فيضرَّك، ويحاول أن يهديك إلى ما يظنه الخير فيُضلّك، هذا إذا أراد الخير وظنّ أنه يُتيح إليك الفرصة إليه. وإلا فهو لا يبالي ما نال منك خيراً أو شراً. ولا خير الْبتة في الصديق الفاسد، فإنه يحتال ويسلك كل سبيل ليجرّ صديقه إلى فساده، لأنه لا يمكن أن يطول تلاقي فاسد وصالح إلا إذا كان الصالح أقوى فيجرّه إلى صلاحه.

---

(١) الحلية ٧/٢٨١.

خصلتان يعسر علاجهما:

وكان أبو محمد بن عيينة يقول: «خصلتان يعسر علاجهما: الطمع فيما في أيدي الناس وإخلاص العمل لله»(١).

وفي الحديث عن أبي الدرداء «ازهَدْ في الدنيا يحبَّك الله، وازهد فيما في أيدي الناس يحبّك الناس». والطمع في غيرك تذلل له، ولكن في سبيل أن ينال خير غيره فلا يبالي الطامع ذِلَّة ولا ضعة ما دام يأمل رِفْدَه، أعطاه أو منعه، ولهذا ترى كثيراً من الناس يُعظِّمون الأثرياء، لا لشيء إلا لأنهم أثرياء مما يزيد بعضهم كِبْراً، ولا فرق من حيث النتيجة بين إنسان له ولأهله طعامهم وكسوتهم ومأواهم وبين أغنى الأغنياء إلا فضلة المال الزائد الذي قد يكون وزراً عليه.

يقول أبو محمد: خصلتان يعسر علاجهما: الطمع فيما في أيدي الناس... إلخ، لأن الطمع داخل في شغاف قلوب الرجال، فلذلك قال يعسر علاجه إلا عند المؤمن الموقن المطمئن الراضي عن الله بما قَسَم وبما أعطى وبما منع. والأمر الثاني الذي ذكره أبو محمد بن عيينة هو إخلاص العمل لله وإنما يعسر علاجه لأن الإخلاص فرض على كل مؤمن، يقول الله تعالى: ﴿ وما أُمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاءَ ويُقيموا الصلاة ويُؤتوا الزكاة وذلك دين القَيِّمة ﴾(٢).

وفي الحديث الصحيح: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل

---

(١) طبقات الشعراني ١/٥٦.

(٢) البيِّنة: ٥.

امرىء ما نوى». فكل عمل مأمورٍ به من الله تعالى أو من رسول الله ﷺ فالأصل أن يكون القَصْدَ فيه اللهُ تعالى وحده دون غيره من خلق الله، وإنْ لاحظ في قصده غير الله تعالى ولو بالقليل فقد أشرك فيه غيره، وهذا الشرك هو الرياء، والإخلاص لا يتجزَّأ، فهو إما للّه، وإما لغيره لا يحتمل غير ذلك وإنما يتقبّل الله تعالى العمل الخالص ويجزي المخلصين الثواب الأوفى. أما الرياء فيحبط العمل، ويذهب بالثواب وعليه الوزر يوم الحساب.

أما عسر إخلاص العمل للّه فإن الإنسان أولُ ما يلحظ نفسَه فكلِ عمل له يحب أن يكون لنفسه منه الحظّ الأوفى، ولو كان عبادةً أو أمراً أو نهياً، ويُعينه على ذلك شيطان يجري منه مجرى الدم، ولا يستطيع التخلص منه، إلا من اتّقى الله وحارب الشيطان وأعرض عن رعونات نفسه الأمّارة بالسوء، واجتهد كثيراً في الطاعة والعبادة، وجاهد هواه فهذا يمكن أن يكون مخلصاً للّه، وقد كان من العُبّاد المخلصين من يخشى دائماً أن يَدُبّ إليه دبيب الرياء.

وروي عن ابن عيينة أنه قال: «الجهاد عشرة، فجهاد العدوّ واحد، وجهاد النفس تسعة»(١).

وهذا القول يشبه الحديث الضعيف وهو قوله: «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» يقول الحافظ ابن حجر: هو مشهور على الألسنة، وهو من كلام إبراهيم بن أبي عبلة(٢).

---

(١) طبقات الشعراني ١/٥٧.

(٢) والحديث في الإحياء، ورواه الخطيب في تاريخه. ويقول الحافظ العراقي: رواه البيهقي بسند ضعيف.

وعلى كل حال فله معنى حَسَن، مجاهدة النفس عما حرّم الله ورسوله ومجاهدتها حتى تلين وتستعدّ لقبول أوامر الله ورسوله، ومجاهدتها حتى تخلص من أهوائِها التي يزيّنها الشيطان، فإذا تخلّت النفس عن أهوائها وعن كلٍّ ما يُبعدها عن الله ورسوله، تكون قد تخلّصت من كل الشوائب وأقبلت بروحٍ صافٍ لتقوم بكل ما يُرضي الله ورسوله.

لا إله إلا الله:

قال سفيان بن عيينة: «لا إله إلا الله في الآخرة بمنزلة الماء في الدنيا، لا يحيا شيءٌ في الدنيا إلا على الماء، قال الله تعالى: ﴿ وجعلنا من الماء كلَّ شيء حي أفلا يؤمنون ﴾ من لم تكن معه: «لا إلــه إلا الله» فهـو ميت، ومن كـــانت معـه لا إلــه إلا الله فهو الحي»[1].

هذا كلام رجل يشعر بكلمة «لا إله إلا الله» بقلبه وعقله وسمعه وبصره، بل في كل ذرّة بوجوده، ويجعلها كالماء ولا حياة إلاّ به وكأنه يريد الحياة الدنيا بله الآخرة.

ولا إله إلا الله: هي القنطرة التي يعبر الإنسان بها إلى الإسلام لأن الإسلام جاء ليجدِّد التوحيد بعد أن أفسدته النصرانية بالتثليث وأفسدته اليهودية بالشرك والتجسيم، ثم أفسده بعض المسلمين بالشرك على طريقة من قال من الجاهلين ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقرِّبونا إلى الله زُلفى ﴾[2] يعطون لبعض

---

(١) حلية الأولياء ٧/٢٧٢.

(٢) الزمر: ٣.

الأنبياء والصالحين بعضَ ما يختص به الله تعالى، مع أن الله تعالى قال لأفضل الرسل والأنبياء: ﴿قل إنما أدعو ربي ولا أشركُ به أحداً قل إني لا أملك لكم ضَرّاً ولا رَشَداً قل إني لن يُجيرَني مِنَ الله أحد، ولن أجدَ من دونه مُلْتحداً﴾[1] أي ملجأً ومعاذاً.

ومعنى لا إلـه إلا الله: لا خـالق، ولا مصـوِّر، ولا رازِق، ولا مُعين، ولا مُستعان، ولا مَسؤولَ، ولا معبود بحق، ولا معطي، ولا مانع، ولا محيي ولا مميت إلا الله وحدَه لا شريك له. ومَن فقه هذا وآمن به عاش في دنياه راضياً سَعيداً بتقدير الله وتدبيره لا يتسخّط ولا يغضب ولا يَحسُد. وأما في الآخرة فإلى جنّة الخُلد إن شاء الله تعالى.

وكان أبو محمد بن عيينة يقول: «وما الدنيا إن كنت بائعها بشربة على ظمأ»[2] لأن المرء إذا ظمىء حتى كاد يهلك وجاء من يحمل الماء وأبى أن يمنحه ولو قطرة من ماء إلا بكل ما يملك لأعطاه كل ما يملك ليظفر بما يدفع الهلكة عن نفسه. وهذا ثمن الدنيا شربةً على ظمأ.

ليس الرزق على قدر الذكاء:

يقول ابنُ أبي عمر: كنا عند سفيان بن عيينة فذكروا الفضل بن الربيع ودهاءه فأنشأ يقول[3] ـ وفي روايـة البيهقي في «مناقب الشافعي»: أنشد الشافعي لسفيان بن عُيينة ـ:

---

(١) الجن: ١٩ و ٢٠ و ٢١.

(٢) حلية الأولياء ٧/٣٠٦.

(٣) الحلية ٧/٢٧٦.

كم مِن قويٍّ قويّ في تقلُّبه مهذَّب الرأي عنه الرزقُ منحرفُ
ومن ضعيفٍ ضعيفِ العقل مختلط كأنه من خليج البحر يغترف
هذا دليل على أن الإلَـه له سِرٌّ خفيٌّ علينا ليس ينكشف[1]

وعن أبي الجعد عن ابن عيينة قال: «من زيد في عقله نقص من رزقه»[2] والشاعر يقول:

يسعى الذكيُّ فلا يَنال بسعيه حَظًّا، ويحظَى عـاجزٌ ومَهِين

ولعل السبب في ذلك أن الذكي العاقل اتَّكل في جلب رزقه على ذكائه وعقله، وغفل عن الرازق، وعن قسمة الله في الرِّزق فأوكله الله إلى نفسه، والمرء مهما يبلغ من قوّته ودهائه وعقله لا يستطيع أن يجلب لنفسه شَروى نقير مِنْ رزق، لأن الله تعالى هو الرازق. أو أن العاقل مصروف عن دنياه إلى ما يقتضيه العقل والذكاء من عِلْمٍ ينفع به الناس، أو سَعْيٍ في مصالح الناس، أو انصرافٍ إلى طاعة الله وعبادته. ومن هذا القبيل قال الحميديُّ سمعت سفيان يقول: «لا تدخل هذه المحابر بيت رجل إلا أشقى أهله وولده»[3].

وقال سفَيان بنٍ عيينة مرة لرجل: ما حِرْفتـك؟ قال: طلب الحديث قال: «بشّر أهلك بالإفلاس»[4] لأنّ المحدّث منصرف إلى طلب الحديث وجمعه، ومجتهد في اقتناص العوالي من الحديث

(١) مناقب الشافعي للبيهقي ٢/٩١.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦١.
(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦١.
(٤) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦١.

النبوي وهي التي قلّ فيها بينه وبين النبي ﷺ الرجال مع وصل السند وتوثيق رِجاله. وليس معه وقتٌ ليسعى فيه على نفسه، ومن هؤلاء أبو محمد سفيان، فقد حكى حرملة بن يحيىٰ أن ابن عيينة قال له: ـ وأراه خبز شعير ـ هذا طعامي منذ ستين سنة[١].

وقال رجل: كنت أمشي مع سفيان بن عيينة إذا أتاه سائل، فلم يكن معه ما يُعطيه فبكى، فقلت: يا أبا محمد ما يُبكيك؟ قال: «أيّ مصيبة أعظم من أن يؤمِّل فيكَ رجلٌ خيراً فلا يصيبه»[٢]. ومع ذلك كان عفيفاً فقد كان إذا أعطاه الناس شيئاً يقول: «أعطُوه لفلان فإنه أحوجُ مني»[٣].

على أن أكثر المحدثين والمجتهدين كانوا فقراء ليس لهم وقتٌ يسعَوْن فيه إلى رِزقهم، منهم الإمام الشافعي، والإمام أحمد، إلا من كان يَقبل صلة الخلفاء أو الأمراء كمالك وغيره، على أن فيهم من سعى واغتنى ثم أقبل على العلم فبلغ منه مبلغاً جليلاً كعبد الله ابن المبارك.

أبو ذر وعيسى ابن مريم عليه السلام:

قال أحمد بن حنبل: حدثنا سفيان قال: «لم يكن أحدٌ فيما نعلم أشدَّ تشبُّهاً بعيسى ابنِ مريم من أبي ذرّ»[٤].

بُعث عيسى ابن مريم إلى بني إسرائيل ليخفِّف من غُلَواء

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦١.
(٢) وفيات الأعيان ٢/٢٩٣.
(٣) طبقات الشعراني ١/٥٦.
(٤) سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٦٩.

المادية الطاغية التي هي شعارهم ودثارهم، بل هي كل شيء في حياتهم، ومن قرأ في التلمود رأى هذا واضحاً صريحاً فيهم، وجاء المسيح بالزهد في الدنيا، وبالإعراض عن زخارفها، لأن اللُّبث فيها قليل، والخلق كلهم صائرون إلى الله تعالى، وفي الإنجيل ما معناه: «لأن يدخل الجمل في سَمِّ الخياط أهون على الله أن يَدخل غني في ملكوت السماء». وفيه من التواضع ما معناه «من ضربك على وجهك الأيمن فأدِرْ خَدَّك الأيسر». وهذا فيه من الذلة والخضوع والتواضع الشيء الكثير، كل ذلك ليخففوا من طغيانهم. من أجلها قتَّلوا كثيراً من أنبيائهم، وتفرقوا شيعاً لتنافُسهم في حب الدنيا، وجلب المال من حِلِّه وحرامه، وما أظنهم استفادوا من السيد المسيح شيئاً، بل سَعَوْا لقتله وصلبه: ﴿ وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم ﴾[1]. وأعتقد أنه لم يكن على طريقة المسيح في الزهد في الدنيا والإعراض عن شهواتها وملاذِّها إلا المسيح نفسه، وبعض حواريِّيه.

أما أبو ذر رضي الله عنه فإنه يشبه السيد المسيح في هذه الناحية، أسلم ودخل الإسلام شغافَ قلبه وقرأ القرآن وسمع من رسول الله ﷺ فأيقن من ذلك أن حب الدنيا لا يجتمع مع حب الله وحب رسوله، بل لا يجتمع مع المصير الأخير من الجنة للمؤمن الذي وهب حياته لطاعة الله ورضوانه، وكان يقرأ في كتاب الله ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا يُنفقونها في سبيل الله فبشِّرهم بعذابٍ أليم يوم يُحمى عليها في نار جهنّم فتُكوى بها

(١) النساء: ١٥٧.

جباههم وجُنوبهم وظهورهم، هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون﴾[1]. فوعاها وتمثّلها عقله وقلبه ورأى أنه لا ينبغي لمؤمن أن يكنز عن أخيه المؤمن، ولو رغيفاً واحداً زائداً عن حاجته وحاجة أهله. فمن عنده رغيفان وهو في حاجة إلى واحد منهما وجارُه إلى جنبه جائع، فحرام عليه أن يضن به على جاره فإن لم يكن جاره فعليه أن يبحث عمن هو في حاجةٍ إليه، فما بالك بمن يكنز الذهب والفضة وفي إخوانه المسلمين من هو بحاجة إلى شطر درهم بل إلى ربعه؟! وما كان يدفعه إلى هذا إلا الزهد الذي فهمه من القرآن الكريم، ومن سلوك النبي ﷺ.

ولو كان الأمر كما ذهب أبو ذر إليه، فليس هناك ضرورة لفرضية الزكاة، وفرضية الزكاة إنما شُرعت للمال المكنوز الذي يمضي على كنزه على الأقل حولٌ كامل، ولولا وجود الأغنياء من الصحابة لتعطّل كثير من المصالح منها الإعداد للجهاد في سبيل الله، وسدُّ حاجة المحتاجين.

فهو بهذا شبيه للسيد المسيح عليه السلام، فإنّ المسيح ما جاء لأمر من أمور الدنيا، إلا ما لا بدّ منه لقوام حياته وإنما جاء ليُحكم صلة العبد بالله وبالدار الآخرة.

وكان ابن عيينة يقول: «إنما كان عيسى ابن مريم لا يريد النساء لأنه لم يُخلق من نطفة»[2] أي كأنه أُعِدَّ منذ خلق ليكون مسلوب الشهوة للنساء، وما أظن هذا، فإنّ الله خلق السيد المسيح

---

(١) التوبة: ٣٥.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٩.

تامَّ الخلق وما بُعده عن الزواج إلا لتمام زهده، وإلا فما المزيّة إذا كان بطبعه بعيداً عن النساء يزهد بهنّ.

يسمع كلام الله من فـي الغلام:

يقول الشافعي: «رأيت سفيان بن عيينة قائماً على باب كُتَّاب فقلت: يا أبا محمد، ما تعمل ها هنا؟ قال لي: إليك عني ويحك - ويحك كلمة رحمة - فإني أحبُّ أسمع كلام ربي من فِـي هذا الغلام»[1].

كان الكتَّاب إلى قريب من زمننا يبدأ فيه الصغار تعلُّمَ القرآن قبل كلِّ شيء، وتعلُّم الكتابة، وشيء من الحساب. فإذا ختم الصغير القرآن بحيث يحسن قراءته من مصحف، فقد انتهى، ثم انتقل إلى حلَقات العلم يسمع فيها من أهل العلم.

ولعل الذي دعا سفيان إلى ذلك سماعه من فتى لم يعص الله قط، أو لعله أن يكون له مع ذلك صوت شجيّ استدعاه أن يتلبَّثَ قليلاً ليزداد من السماع.

الواعظ والموعوظون:

يقول سفيان بن عيينة: «لا ينبغي للواعظ أن يذم نفسه عند الموعوظين، ألم تسمع إلى قول شعيب عليه السلام: ﴿ وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ﴾[2].

---

(١) مناقب الشافعي ١/ ٤١٠.

(٢) تاريخ واسط: ٢٥٩.

أما قوله: لا ينبغي للواعظ أن يذمّ نفسَه عند الموعوظين فهذا حق لأنه إذا ذمَّ نفسه لهم صغُر في أعينهم، وقلّ تقديرُهم له، فلا ينتفعون بموعظته، وخصوصاً إذا تبيّن لهم أنه يأمر بمعروف ولا يأتيه، وينهى عن منكر ويأتيه، والله تعالى يقول: ﴿أتأمُرون الناسَ بالبِرّ وتَنْسَوْن أنفُسَكم...﴾[1]، ويقول: ﴿كَبُرَ مَقْتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون﴾[2].

والواعظ إذا وعظ بحاله وسلوكه يُنتفع به ويكون قدوةً صالحة أكثر من أن يقول شيئاً، وإن كان يستشهد بكتاب الله وسنّة رسوله ﷺ. وكان أصحاب رَسوله ﷺ يقتدون بأعمال النبي ﷺ، على أن أعماله حجّة في الشرع كأقواله، وكذلك كان الصحابة بالنسبة للتابعين، والتابعين لمن بعدهم.

ومن التزم فروض الإسلام ونوافله، وترك المنهيات كلها كبيرها وصغيرها كان قدوة الناس في كل زمان أو مكان.

المشاكلة والمنافرة:

يُحكى عن سفيان بن عيينة «أنه جاءه رجل من أهل الرأي، فأعرض عنه، ثم دارَ من ناحيةٍ أخرى فأعْرَض عنه، فقال سفيان:

وما يلبثُ الأقوام أنْ يَتَفرقوا
إذا لم يُؤلف روحُ شَكْلٍ إلى شَكْلِ
أبِنْ لي وكنْ مِثْلي أو ابتغ صاحباً
كمثلك إني مبتغٍ صاحباً مِثْلي

---

(١) البقرة: ٤٤.
(٢) الصف: ٣.

وهذا القول يشبه الحديث النبوي المخرَّج في البخاري عن عائشة: «الأَرواحُ جنودٌ مجنَّدة فما تعارف منها ائتلف وما تناكَرَ منها اخْتلف». والمُشاكَلَةُ والمُنَافَرةُ قد تكون بالطِّباع، وقد تكون بالرأي، وقد تكون بالاتجاه والمذهب. وقديماً كان أصحاب الرأي مُتَنَافرين مع أصحاب الحديث ولا يَثْبت التآلف والود إلَّا بالطِّباع المتقاربة أو المذاهب المُتَجانسة، وقال الإمام أحمد: «ما زِلنا نلعن أصحابَ الرأي ويلعنوننا حتى جاء الشافعي فمزج بيننا»[1] أي أنه قرَّبَ المسافة بينهما بتعليمهم الاجتهاد، وإدخال بعض القياس على مذهب المحدِّثين.

رجل يشكو زوجه:

يقول يحيىٰ بن يحيىٰ: «كنت عند سفيان بن عيينة إذ جاء رجل فقال يا أبا محمد أشكو إليك من فلانة - يعني امرأته - أنا أذلُّ الأشياء عندها وأحقرُها، فأطرق سفيان مليّاً، ثم رفعَ رأسه فقال: لعلك رَغبت إليها لتزداد عِزّاً، قال: نعم، يا أبا محمد، قال: مَن ذَهَب إلى العِزّ ابْتُلي بالذل، ومن ذهبَ إلى المال ابتُلِيَ بالفقر، ومن ذهب إلى الدِّين يجمع الله له العز والمال؛ ثم أنشأ يحدثه فقال: كنا إخْوةً أرْبعَة: محمداً، وعمرانَ، وإبراهيمَ، وأنا؛ ومحمدٌ أكبرُنا، وعمرانُ أصغرنا، وكنتُ أوْسَطهم، فلما أراد محمد أن يتزوّج رغب في الحسب، فتزوج من هي أكبرُ حَسَباً فابتَلاه اللهُ بالذل، وعِمران رَغِب في المال فتزوّج من هي أكثرُ مالاً منه، فابتلاه اللهُ بالفقر، أخذوا ما في يَدَيْه ولم يُعطوه شيئاً، فبقيت في

---

(١) ترتيب المدارك ١/٩٥.

أمرهما، فقَدِم علينا معمر بن راشد، فشاورته وقصصتُ عليه قصة إخوتي فذكرني حديث يحيىٰ بن جعدة، وحديث عائشة، فأما حديث جعدة: قال النبي ﷺ «تُنكح المرأة على أربع: على دينها، وحَسَبها، ومالها، وجمالها، فعليك بذات الدين تربتْ يداك»[1] وحديث عائشة: «أن النبي ﷺ قال: أعظمُ النساء بركة أيسرهن مؤونة»[2]. فاخترت لنفسي الدين، وتخفيف الظهر اقتداءً بسنّة رسول الله ﷺ فجمع الله لي العزَّ والمالَ مع الدين»[3] وما يزال الناس في كل دهرهم يبحثون عن الجمال قبل كل شيء، وكل أمْر بعد الجمال نافلة، ومنهم من يبحث عن المال في الزوجة، فإن كانت غنية فحسبه ذلك، وإن كانت غنية جميلة فذلك غاية المقصود، ولا يعنيهم أبداً غير ذلك. والذين ينتصحون بنصيحة النبي ﷺ -وهي أن يظفر بذات الدين- فهم قلة، بل هم نُدرة لا تكاد تجدهم مع أنه ينبغي أن تكون ذات الدين غاية الغايات لمن يريد أن يستمر زواجه سعيداً إلى أن يأتي الأجل، وكم سمعنا من ابتُلي بتكبُّر امرأته عليه بغناها وفقره، أو بشرفها وهو دونها في ذلك.

أما ذات الدين وإن كانت ذات شرف وجمال فدينُها يمنعها أن تتيه عليه وتعرف أنه هو صاحب الرعاية عليها وعلى أولادها، وأن لها مثل ما عليها من الحقوق والواجبات.

---

(١) الحديث في الصحيحين عن أبي هريرة بلفظ «تُنكح المرأة لأربع: لمالِها، وحسبها، ولجمالها، ولدينها، فاظفر بذات الدين تَرِبَتْ يداك».

(٢) الحديث في مسند أحمد ١٤٥/٦.

(٣) حلية الأولياء ٧ / ٢٩٠.

فهذه هي الحكمة بقوله عليه الصلاة والسلام: «فاظفر بذات الدِّين».

وزيادة على ذلك إنّها أضمنُ حِفظاً لنفسها ولِبَيتِها ولغَيْبة زوجها وأنها خيرُ تَرْبية لأولادِها، لأن ذاتَ الدِّين لا تَنْطِق ولا تتصرف إلا بوحي من الدِّين.

سماعه ما حَسُن من الشعر وعزوفه عما لا يحسن:

يقول المبرد: «وحُدِّثتُ من غيرِ وجه أن سفيان بنَ عيينة قال لجلسائه يوماً: إن جارَنا السهميَّ قد أثْرَى وانفَسحت له النِّعْمة، وصار ذا جاهٍ عند الأمراء، ووافِداً إلى الخلفاء فمِمَّ ذاك؟ ـ يعني إسماعيلَ بن جامع ـ فقال له جلساؤه: إنه يصير إلى الخليفة فيتغنّى له، فقال سفيان فيقول: ماذا؟ قال أحد جلسائه: يقول:

أطوِّف نهارِي مع الطَّائفين ... وأرفعُ من مِئزري المُسبَلِ

فقال: ما أحسنَ ما قال! فقال الرجل:

وأسهرُ لَيلي معَ العَاكِفين ... وأتلو من المحكَم المُنزَلِ

قال: حسن والله جميل، قال: إن بعد هذا شيئاً، قال سفيان وما هو؟ قال:

عسى فارِج الكَرْب عن يوسُفٍ ... يُسخِّر لي رَبَّة المِحْمَل

فزوى سُفيان وجْهَه وأومأ بيده أن كُفَّ، وقال: حَلالاً حلالاً»[1].

---

(١) الكامل للمبرد ٢/٨١٤ ـ ٨١٥.

وكان العرب ومن استعرب من المسلمين يهتَزُّون لسماع الشعر، حتى إن رسول الله ﷺ - وإن لم يُعلَّم الشعر - يرتاحُ لسماعه فقد رَدِفه يوماً صحابيٌّ، فقال له رسول الله ﷺ: أَنشدني من شعر أميَّةَ بن أبي الصَّلت: قال: فأنشدتُه بيتاً، فقال: هِيه فأنشدته بَيْتاً آخرَ فقال: هِيه - أي زِدْ - حتى أنْشدتُه مئةَ بيت فقال: إن كاد قلبُه ليسلم.

وفي البخاري ومسلم: عن البراء «أن رسول الله ﷺ قال يومَ قريظة لحسان: «اهج المشركين فإن جبريل معك»، وفي رواية لمسلم: أن رسول الله ﷺ قال: «اهجوا قريشاً فإنه أشدُّ عليها مِن رَشْقِ النَّبْل».

وكانت عائشة رضي الله عنها تقول: الشعرُ كلامٌ فحسَنُه حسن وقبيحه قبيح.

وهذا هو الكلام الفصل في سماع الشعر، ولكن للشعر من الجاذبية ما ليس للنثر، وما أظن عَربيّاً إلا قال الشعر من البيتين أو أكثر، بل أقول قلّ عالم من علماء المسلمين إلا وقد حاول قول الشعر، وروي عنه القليل أو الكثير، حتى سفيان رحمه الله رُوي عنه بعض الشعر، وقد أتينا على بعض ذلك.

أبيات تذكر الآخرة:

عن الصلت بن مسعود قال: «كان سفيان بن عيينة يستحسن شعر عدي بن زيد:

أينَ أهلُ الدِّيار مِن قوم ٍ نُوحٍ ثم عـادُ من بعـدِهم وثَمـودُ

بينما هم على الأسِرةِ والأنمـ ـاطِ[1] أفْضَتْ إلى التراب الخُدُودُ
ثم لم ينقضِ الحديث ولكن بعـد ذا الوعـدُ كلُّه والوَعيـدُ
وأطبـاءُ بعـدَهم لحقـوهُم ضَلَّ عنهم سَعُوطُهم[2] واللدود[3]
وصحيحٌ أضْحَى يعودُ مريضاً وهو أدنى للموت ممن يَعودُ»[4]

هذه الصحف التي تقدَّمت كلُّها من حِكَم ابنِ عيينة، وهذه الحِكَم هي الخلاصة العقلية لعلم ابن عيينة، ومن تجاربه، ومن معرفته بطرائق الناس وسلوكِهم. وهي جميعُها أو أكْثرها يرجع إلى ما شَرَع اللهُ وقد عَلَّقنا عليها بما يناسبها ولا يَخْرج عنها.

(١) الأنماط: نوع من البُسُط.
(٢) السَّعوط: الدواء يُوضع بالأنف.
(٣) اللدود: شرب الدواء من الفم بآلة لذلك.
(٤) عيون الأخبار ٢/٣١٧.

هل اختلط سفيان بأخرة؟

يقول يحيى بنُ سعيد: «اشْهَدُوا أن سفيانَ بنَ عيينة اختلط سنةَ سبعٍ وتسعين ـ يريد فسدَ حفظُه، وضعُف وَعْيُه ـ فمن سَمِع منه في هذه السنةِ وبعدَ هذا فسماعُه لا شيء»(١).

حدث إبراهيم بن المنذر سمعتُ أنَّ ابنَ عُيَينَةَ يقول: «أنا أحقُّ بالبكاء من الحُطَيئة، هو يَبْكي على الشعر، وأنا أبكي على الحديث».

قال شيخ الإسلام(٢) عُقيبَ هذا: أُرَاهُ قال هذَا حينَ حُصِر في البيت عن الحديث، لأنه اخْتَلَط قبل موته بسنة.

قلت ـ أي الذهبي ـ «هذا لا نُسلِّمه، فأينَ إسنادُك به»(٣).

وقال رباح بن خالد الكوفي: «سألت ابن عيينة فقلت: يا أبا محمد إن أبا معاوية يحدِّث عنك بشيء ليس تحفظُه اليوم، وكذلك وكيع فقال: «صدِّقْهم، فإني كنت قبلَ اليوم أحفظَ مني اليوم».

---

(١) تاريخ بغداد ١٨٣/٩.

(٢) هو ابن تيمية.

(٣) سير أعلام النبلاء ٤٦٩/٨.

قال محمد بن المثنى العَنَزي: سمعت سفيان يقول ذلك لرباح وهو في سنة إحدى وتسعين ومئة[١].

يقول الذهبي: «فأما ما بلغنا عن يحيىٰ بن سعيد القطان أنه قال: اشهدوا أن ابنَ عُيينة اخْتَلط سنة سبعٍ وتسعين ومئة، فهذا منكَر من القول، ولا يصح، ولا هو بمُستقيم، فإن يحيى القَطَّان مات في سنة ثمان وتسعين مع قدوم الوفد من الحج، فمن الذي أخبره باختلاط سفيان، ومتى لَحِق أن يقول هذا القول وقد بلغَتِ التراقي؟!

وسفيانُ حُجةٌ مُطلقاً ـ أي في أوَّلِ حياته وآخرها ـ وحديثه في جميع دواوين الإسلام، ووقع لي كثيرٌ من عَواليه، بل وعند عبد الرحمٰن سِبْط الحافظ السِّلَفي من عَواليه جملةٌ صالِحة، منها جُزء ابنِ عيينة رواية المَرْوزي عنه، وفي جُزْءِ عليٍّ بن حَرْب رِوَاية العَبَّادَان، وجُزْآن لعلي بن حرب رواية نافلته أبي جعفر محمد بن يحيىٰ بن عمر الطائي، وفي الثَّقَفيات، وغير ذلك، وقد جمع عوالِي ابنِ عيينة أبو عبد الله بن مَنْده، وأبو عبد الله الحاكم، وبعدهما أبو إسحاق الحبَّال»[٢].

وضعَ الذهبي الحدَّ على المَفْصِل في تبرئة الإمام سفيانَ بن عيينة من الاخْتلاط، وأثبتَ أنّ حديثه من بَدْء حياته حتى انتهائها ثابتٌ كلُّه لم يَعْتَرِه ضعفٌ بسبب الذاكرة أو بسبب كبر السنّ.

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٩ ـ ٤٦٠.

(٢) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٥ ـ ٤٦٦.

حَجُّ سُفيان

ذكر أبو داود ابنَ عيينة، فقال: «حَجَّ به أبوه سَبْعاً وعشرين حِجَّة؛ حَجَّ به وله ستٌّ سنين إلى أنْ بلغ نَيِّفاً وثلاثين سنة»[1].

وقال علي بنُ المَديني: «حَجَّ سُفيان اثنتين وسبْعين حِجَّة، وأول حِجةٍ كانت وعمره تسعُ سنين»[2].

وقال ابن عيينة: «حَجَّ بي أبي وعطاءُ بن أبي رباح حَيّ»[3] ـ وتوفي عطاءُ بن أبي رَباح سنة أربعَ عَشْرَة ومئة، ومولدُ سفيان سنة سبع فيكون عمرُ ابنِ عيينة سبعَ سنين في أول حجَّة حجها.

وقال سفيان: «حججت سنة ستَّ عشْرةَ ومئة، ثم سنة عشرين قال: وجاءني الزُّهري مع ابنِ هشام الخليفة سنة ثلاثٍ وعشرين ومائة، وخرج سنةَ أربع وعشرين ومئة، قال: وسألتُه وسَعْد بنُ إبراهيم عنده فلم يجبني في الحديث، فقال له سَعْد: أجبِ الغلامَ عما سألك، قال: أمَّا أني أُعْطيه حقَّه، قال سفيان: وأنا يومئذ ابنُ ست عشرة سنة»[4] وروى سليمان بن أيوب: سمعت سفيان بن عيينة يقول: شهدت ثمانين موقفاً ـ أي بعرفة ـ.

(١) تاريخ بغداد ٩/١٧٦.

(٢) تاريخ بغداد ٩/١٨٣.

(٣) سير أعلام النبلاء ٨/٤٥٨.

(٤) طبقات ابن سعد ٥/٤٩٧.

ورُوي أن سُفيانَ كان يقول ـ في كلٍّ موقف ـ: «اللَّهم لا تجعلْه آخِرَ العَهْد مِنك» فلمَّا كان العام الذي مات فيه لم يَقُلْ شيئاً، وقال: «قد اسْتَحْيَيْتُ من الله تعالى»(١).

آخرُ حجّةٍ حَجّها:

أخبرني الحسن بن عمران بن عيينة بن أبي عمران، ابنُ أخي سفيان، قال: «حَجَجْتُ آخِرَ حِجَّة. حججتها سنة سبعٍ وتسعين ومئة، فلما كنا بجمع وصلَّى استَلْقى على فِراشه ثم قال: قد وَافَيْت هذا الموضع سبعين عاماً، أقول في كلِّ سنة: اللهم لا تجعلْه آخرَ العَهْد من هذا المكان، وإني قد اسْتَحْييت اللهَ من كثرةِ ما أسألُه ذلك، فرجعَ فتُوفي في السنة الداخلة»(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨/٤٦٥.

(٢) طبقات ابن سعد ٥/٤٩٧ ـ ٤٩٨.

وفاته رحمه الله

توفي الإمام سفيانُ بنُ عيينة يومَ السبت أولَ يومٍ من رجب سنة ثمان وتسعين ومئة (١٩٨) ودُفن بالحُجُون[١]. وفي تاريخ مكة: «وقبره معروفٌ بالمعلاة»[٢] وعاش إحدى وتسعين سنة من سنة ١٠٧ إلى سنة ١٩٨ هـ. وكان كثيراً ما يرثي نفسَه في أيَّامه الأخيرة، قال قُدامة السرخسي: كثيراً ما يرثي نفسَه فيقول:

ذهبَ الزمان فصِرتُ غير مُسوَّدِ ومن الشَّقَاء تَفَرُّدِي بالسؤددِ[٣]

رثاؤه:

رَثى الإمامَ سفيانَ كثيرون منهم الخُطَيم، قال محمد بن الصباح الجرداني قال الخطيم في ابن عيينة:

سِيري نَجاء وقاكِ اللهُ من عَطَبٍ حتى تُلاقِي بعد البيت سُفيانا
شيخَ الأنام ومن حلَّتْ مناقِبُه لاقى الرجالَ وحاز العلمَ أزمانا
حوَى بياناً وفَهْماً غالِياً عَجَبا إذا يَنُصُّ حديثاً نَصَّ برهانا
ترى الكهولَ جميعاً عند مشهدِه مُسْتَنْصِتين وشيخاناً وشُبَّانا

---

(١) تاريخ بغداد ١٨٤/٩.

(٢) تاريخ مكة ٥٩٢/٤.

(٣) الجرح والتعديل ٥١/١.

يضم عَمْراً إلى الزهريِّ يسنده وبعد عمرو إلى الزهري صَفْوانا
وعبـدة وعبيـد الله ضَمَّهمـا وابنُ السَّبيعي أيضاً وابنُ جُدعانا
نفهم عن رسولِ الله يُوسعُنا علماً وحُكْماً وتأويلاً وتبيانا(١)

وقال الرِّياشي قال الأصمعي يرثي ابنَ عيينة(٢):

لِيبكِ سفيانَ باغي سُنةٍ دَرَسَتْ وَمُسْتَبِينَ أَثَارَاتٍ وآثار
ومُبتغي قُرْبَ إسنادٍ ومَوْعِظةٍ وواقفيُّون من طارٍ ومن سَاري
أمسَتْ منازلُهُ وَحْشاً مُعَطَّلةً من قاطِنين وحُجَّاج وعُمَّارِ
من الحديث عن الزهري يسندُه وللأحاديث عن عمروِ بن دينار
ما قام من بعده مَن قال حدثنا الزهريُّ في أهل بدوٍ أو بإحضار
وقد أراه قريباً مِن ثلاث مِنى قد حَفَّ مجلسَهُ من كلِ أقطار
بنو المَحابر والأقْلامُ مُرْهَفَة وسَما سِمَات قَراها كلُّ نجار

ورثاه ابن مناذر، قال الزبير بن بكار أنشدني إبراهيم بن المنذر لابن مناذر يرثي سفيان بن عيينة:

من كان يبكي وَرِعاً عالماً فلْيَبْكِ للإسلام سُفْيانا
راحُوا بسفيان على نَعْشه والعِلم مَكسُوَّين أكْفَانا
يا واحدَ الأمةِ في علمها لقيتَ مِنْ ذي العرش رِضوانا
تجلو من الحكمة أنوارها ما تشتهي الأنفس ألوانا
فقدك يا سفيان أتانا فقد الأخلاء وأنسانا(٣)

---

(١) سير أعلام النبلاء ٨ / ٤٧٥.
(٢) سير أعلام النبلاء ٨/ ٤٧٤.
(٣) تاريخ بغداد ٩/ ١٨٤ والجرح والتعديل ١/ ٥٤.

وهكذا مضى إلى ربّه شيخ الإسلام، وشيخ شيوخ الحديث في مكة الإمام سفيان بن عيينة الذي بفضله وبما حفظ من سنّة رسول الله ﷺ وبفضل أمثاله انتشر حديث رسول الله ﷺ في الأرض. فكبار أئمة الحديث البخاري ومسلم والنسائي والترمذي وأمثالهم أفادوا أكثر ما أفادوا من هذا الإمام العظيم بوساطة أصحابه كالإمام أحمد، وعليّ بنِ المديني، والحُميدي، والشافعي، وهؤلاء هم الذين أكثروا من علمه وفضله، وهم الذين نشروا في الآفاق أكثر علمه وحديثه، ونَشَر معهم نحو ألفٍ من غيرهم ممن أخذ عن سفيان، ولكن دون أولئك.

ولقد كان رحمه الله قليل النظير في حافظته، ما عُرف أنه أخطأ إلا بالقليل النادر، والذي سمع منه أيام شبابه، ثم سمع منه أيام شيخوخته لا يسمع إلا الحديث نفسه، ليس فيه تغيير ولا تبديل ولو بحرف واحد، وما قيل بأنه اختلط فخطأ، وردَّ الإمام الذهبيُّ اختلاطَه الذي زعمه بعضهم؛ ردّه بقوة وحجة، وقال: ولا دليلَ لمن زَعمَ ذلك.

وكان من الوثوق بنقله في درجة لا يرقى إليها إلا قلةُ القِلّة، فهو أوثق الناس. ولقد فضل عن أقرانه بأنه روى عن نحو بضعةٍ وثمانين من التابعين. فليس بينه وبين الصحابي إلا التابعي، وليس بينه وبين رسول الله إلا اثنان: التابعي والصحابي.

رحمه الله رحمةً واسعة، وأثابه على قدر ما روى من حديث رسول الله ﷺ وعلى قدر ما أفاد وعلّم وروى.

الخاتمة

سفيان بن عيينة محدث مكة وعالمها، روى عن نحو ثمانين تابعياً ونيف وكان له حافظة قوية نقية، لم يتغير حديثه مع طول عمره، فمن روى عنه وهو شاب ثم روى عنه وهو شيخ كبير فلا تختلف الرواية عنه ولو بكلمة واحدة ولم يكن بينه وبين الصحابي إلا رجل واحد هو التابعي، ولا بينه وبين رسول الله ﷺ إلا رجلان: التابعي والصحابي.. وكان باتفاق علماء هذا الشأن ثقةً ثبتاً حجة. وكان عالماً بكتاب الله وفقيهاً كبيراً، يرجع إليه في ذلك، وإن لم يؤلف كتاباً في الفقه.

وصحبه كبار العلماء والمجتهدين كالامام الشافعي والامام أحمد وشيخ الجرح والتعديل يحيي بن معين وعلي بن المديني إمام محدثي عصره والحميدي صاحب الشافعي الذي لا تكاد ترى في مسنده إلا حدثنا سفيان بن عيينة وقد أخذ عنه البخاري وانتفع به كثيراً حديثاً وفقهاً، بل أكثر من ألَّف في الحديث من الأقدمين بعده فلسفيان له عليهم الفضل بواسطة أمثال هؤلاء.

وكان يرحمه الله عاملاً بعلمه متعبداً زاهداً ورعاً، لم يشغله قط عن عبادته وعلمه شاغل. رحمه الله وأحسن مثوبته فقد علم الناس وأدبهم بأدب رسول الله ﷺ.

الفهرس

آثار المؤلف

١ - فهرس مخطوطات المذهب الشافعي	الطبعة الأولى نفد
٢ - شرح الشذور ترتيب وتعليق	الطبعة الثانية نفد
٣ - الامام الشافعي	الطبعة الرابعة
٤ - الامام أحمد بن حنبل	الطبعة الثانية
٥ - معجم النحو	الطبعة الثالثة
٦ - الامام مالك	الطبعة الثانية
٧ - الامام النووي	الطبعة الثالثة
٨ - صحيح الآثار في الأدعية والأذكار	الطبعة الثالثة
٩ - لمحات من الكتاب والنبوة والحكمة	الطبعة الأولى
١٠ - معجم القواعد العربية	الطبعة الأولى
١١ - سفيان بن عيينة	الطبعة الأولى
١٢ - تحرير ألفاظ التنبيه. تحقيق	الطبعة الأولى
١٣ - تاريخ دمشق. قسم الأحمدين. تحقيق	الطبعة الأولى